مرايا

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

كتابي" الاستشراق" بعد خمسين سنة

الأثر المادي للذاكرة في الدماغ

الظلامية الكولونيالية في أوربا:
أربعة قرون من تبرير الرق و االامبريالية

استقتبال العمل الأدبي من وجهة النظر الاجتماعيه
الاختلافات و التشابهات

العملية الترجمة بين العقل و العاطفة

العدد الخامس السداسي الثاني 2011

معـالم

Maalim

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

في

هذا العـدد

ذاكرة الأفكار والمحتوى الثقافي

العدد الخامس
السداسي الثاني 2011

المدير مسؤول النشر
الدكتور محمد العربي ولد خليفة

رئيس التحرير
الدكتور محمد قماري

المراســـــــلات:

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرنكلين روزفلت الجزائر
الهاتف: 213 21/23 07 24 -25
الناسوخ: 213 21/23 07 07 07
ص.ب: 575 **ديدوش مراد الجزائر**
البريد الإلكتروني: maalimtarjama@gmail.com
رقم الإيداع: 6012-2009
الترقيم الدولي الموحد للمجلات (ر.د.م.د): 2170-0052

هيئة التحرير

- أ. موسى زمولي
- أ. د.صالح بلعيد
- أ. مهندس طه زروقي
- أ. فتيحة خلوت
- أ. مهندس عبد الكريم شريفي

الهيئة الاستشارية:

- خولة طالب الإبراهيمي
- محمد بن عمرو الزرهوني
- عبد القادر بوزيدة
- محمد هناد
- رشيد بن مالك
- أحمد برغدة
- إنعام بيوض
- السعيد بوطاجين
- مختار نويوات

أبـــواب المجلـــة

كلمة العدد جديد الفكر د. محمد قماري 07

فكـــــر ودراسات

الظلامية الكولونيالية في أوربا: أربعة قرون من تبرير الرق والامبريالية
أ.غريش ترجمة د. محمد العربي ولد خليفة 13
كتابي الاستشراق: بعد خمسين سنة
إدوار سعيد ترجمة د- مجمد يحياتن 27
نظرة جديدة للتاريخ الوطني أكثر من ضرورية
محي الدين جندر ترجمة أ. العربي عقون 39

لسانيـــــــات

إشكالية المصطلح اللساني والترجمة
د.عبد الجليل مرتاض 69
العملية الترجمية بين العقل والعاطفة
كريستسن دوريو ترجمة أ.الجوهر خالف 81

العلـــــم في سيـــــره

الأثر المادي للذاكرة في الدماغ سلفي غريسو ترجمة محمد قماري 93
عالم النانو: مفاتيح للفهم موسى زمولي 101

أدب وتراث

استقبال العمل الأدبي من وجهة النظر الاجتماعية:
الاختلافات والتشابهات ماريا ريف ترجمة د.عبد القادر بوزيدة 117
حكمة الأجداد د.صالح بلعيد 125

متابعات

مهاتير محمد:
قراءة استشراف ماليزيا والعولمة في آفاق 2020 ترجمة أ.عمر نقيب 133
حوار دومينيك فينر
صدمة التاريخ: الذاكرة، الدين والهوية
حوار لور ديستري ترجمة محمد قماري
أخبار علمية
كتب
اختيار وعرض رئيس التحرير

كلمة العدد

جديد الفكر..

نسارع إلى القول أننا لا نبتغي من وراء هذا العنوان ''جديد الفكر''، أن نستدعي لأذهان القراء معركة دارت رحاها على امتداد عقود طويلة، بين دعاة ''أصالة'' تتوجس من الجديد أو المعاصر، وحملة لواء حداثة وتجديد ينكرون الأصالة والتراث، بل ويسعون إلى وضع كل حمولة هذا التراث في وعاء ''التقاليد البالية''، ربما تمهيدا لقبره والتخلص منه..

لا أتطلع إذن للزيادة في قضية أعتقد أنه لم يبق في قاموس اللغة فيها كلمات لمستزيد، وإن تكن ملابسات المعركة ما تزال قائمة إلى اليوم، إذ كان محركها الأول هو البحث عن الطريق الأمثل لنهضة منشودة، تردم الهوة الحضارية بيننا وبين أمم سبقتنا لا في مجالات التقانة والعلوم البحتة وحسب، ولكن حتى ما كنا نباهي به من ضروب ''الفصاحة'' والآداب والفنون، وما تبعها من مباحث علم النفس والعلوم المعرفية cognitives وتطور مناهج البحث، وضبط مخرجاتها وجعلها تدخل نظم التقييس والتعيير التطبيقي، فغدت كل العلوم في خدمة التنمية البشرية..

لقد رحل عن دنيا الناس كثير من رواد تلك المعارك، وانقشع كثير من الضباب الذي كان يلف ساحاتها، فالصورة أصبحت أكثر وضوحا، وإن كان من العسير الإقرار بانضباط خطوطها ومعالمها، فلا يزال صهيل خيول تلك المعارك يشق الفضاء، بين الحين والآخر، وإن استبدلت أغلب الساحات الثقافية بساحات الجدل السياسي، فبدل الجدل حول أحقية التعليم الحديث أو التقليدي، وتعليم المرأة، انزاح مسار الجدل إلى قضايا نظام الحكم وطبيعة الدولة، وإن كانت هناك بواكير لهذه

الدكتور
محمد قماري

المسألة في بداية القرن الماضي، يوم صدر كتاب الشيخ علي عبد الرازق ''الإسلام وأصول الحكم''..

إنَّنا نظلم الحقيقة إذا سلمنا أن الأمة بقيت تراوح مكانها، طيلة هذه المدة، فمؤكد أن قضايا الاستقلال السياسي للأوطان وانتشار التعليم بين الجنسين، ومحاولات النهوض ببناء مؤسسات، قد ساهم في نقل المعركة من ''التمني'' إلى محاولات إيجاد ''الفاعلية''، وأن الهوة بدأت تضيق بين ''أصولية'' تراثية تنكر الحداثة، و''أصولية'' حداثية تتنكر للتراث، خاصة بعد ظهور تجارب رائدة في آسيا تحديدا، استطاعت أن تلحم تراثها في قاطرة التقدم، كما هو الشأن في اليابان والصين، بل في دول من العالم الإسلامي كماليزيا وتركيا حديثا، وفي هذا العدد من ''معالم'' تحليل لأحد صناع نهضة ماليزيا الدكتور مهاتير محمد، يستشرف فيه مستقبل بلاده في آفاق نهاية العقد الحالي..

إن النموذج المعرفي والتطبيقي الغربي، يمكن استلهام قيمه العملية في سبيل الخروج من نفق التخلف، لكن ليس من الضروري إن لم يكن من العبث، محاولة السير على ملابسات وجوده عبر مسار التاريخ الخاص بأمم وشعوب الغرب، وهي مهمة تقتضي إعادة النظر في تشكيل العقل العربي، وتخليصه من شوائب عصور الانحطاط، وإحياء فكر النقد والتمحيص، والتحرر من قيود القيم المطلقة، فليس القديم كل القديم على صعيد واحد من الجدوى والفاعلية، وليس الجديد كل الجديد سواء في جانب النجاعة والصلاحية، ثم إنَّ الجديد لم ينبت دون جذور تصله بقديم سبقه..

لقد مضينا في هذه الكلمة، ومقصدنا الأول منها، الإجابة عن سؤال كان أحد قراء مجلة ''معالم'' قد ألقى به إلينا، فرأينا أن الواجب يقتضي رد التحية بالجواب، فالسائل لفت انتباهه كون المجلة ''تعنى بترجمة مستجدات الفكر''، وربما لم ير في الجديد إلا جانب الزمن، فالجديد عنده هو وليد اللحظة الراهنة، وهو على خلاف نظرتنا في أسرة تحرير ''معالم''، فالفكر الجديد هو الفكر الحي، والفكرة الجديدة هي التي مازالت مؤثرة في الواقع، وإن لم تكن وليدةُ اليوم من قبيل ظهورها..

وهو ما يدركه المطلع على هذا العدد الخامس من المجلة في يسر، فالمقال الأول: ''الظلامية الكولونيالية في أوروبا: أربعة قرون من تبرير الرق والإمبريالية''، يقف عند نموذج إبداعي لأحد رواد التنوير في الغرب، هو فرانسوا فولتير (1694-1778)، وهو يعرض لقضية الرق وعبودية البشر، فتختزل كلمة البشر في الرجل الأبيض الأوربي، وهو المسار ذاته الذي سار عليه توكفيل وغيره من كتاب ومفكرين ينسبون إلى عصر الأنوار، وهذه القضايا تجعلنا نقف عند قضية الدال والمدلول في كثير من الشعارات، إذ جمال الدوال لا يغني عن التمحيص في فحوى المدلولات..

ونمضي في سياق الدال والمدلول مع كتاب ''الاستشراق'' للمفكر الراحل ادوارد سعيد، وهو رجل يمكن أن يوصف بحق بـ''المستَغْرب'' في مقابل مصطلح ''المستشرق''، فالرجل خبر الغرب عن كثب، وصدر في معالجته موضوع الإستشراق عن دراية وتجربة ومعايشة، وعلى مضمار التوقف على خط التماس مع الآخر جاء مقال: '' نظرة جديدة للتاريخ الوطني أكثر من ضرورية'' ليقدم رأيا نقديا حول قضية شائكة هي كتابة التاريخ الوطني، وفق أسس يراها الكاتب أكثر موضوعية، وتبتعد عن منطق التعبئة والشعبوية..

مقالات باب اللِّسانيات، جاءت لتملأ الجانب العملي من الترجمة، ففعل الترجمة وإن كان محمودا في ذاته، لأنه ييسر انتقال الآخر إلى لغتنا، فإن البحث عن الجودة، والتحكم في تقابل المصطلحات ضرورة لتضييق هامش ''خيانة'' أفكار صاحب النص الأصلي، كما أن حيادية المترجم وقدرته على ضبط ''العمليَّة التَّرجميَّة بين العقل والعاطفة''، تعود بالفائدة على متلقي النص في اللُّغة المنقول إليها..

وبعد، فهذا هو العدد الخامس من ''معالم''، نضعه بين يدي القراء، وفيه مقالات علمية وأدبية وفكرية، والمجلة تتطلع أن يصدر العدد السادس، والجزائر تستقبل العقد السادس من عمر دولة الاستقلال، وأسرة التحرير تأمل في دخول شباب الجامعات حلبة الترجمة، وتكثيف حركية التراجمة من كل اللغات، واطلاع القراء عن كل جيِّد وجديد من حكمة الآخر، فالحكمة ضالتنا أنى وجدت ولغتنا العربية تسعها ببيانها، ومجلتكم تفتح صفحاتها أمام جهودكم، فإلى أقلامكم، والله الموفق.

الظلامية الكولونياليـــة في أروبـــا

أربعـــة قـــرون من تبريـــر الرق والإمبرياليـــة

أ.غريش نقله إلى العربية د. محمد العربي ولد خليفة -جامعي-

كتابـــــي- الاستشـراق-

بـعـــد خمس وعشريـــن سنـــة

إدوارد سعيـد
ترجمة محمد يحياتـن - جامعة تيزي وزو

نظرة جديدة للتاريخ الوطني أكثر من ضرورية (*)

محيي الدين جندر
ترجمة الدكتور العربي عقون - جامعة قسنطينة-

الظلامية الكولونيالية في أوربا

أربعة قرون من تبرير الرق والإمبريالية

أ.غريش نقله إلى العربية د. محمد العربي ولد خليفة -جامعي-

1- تمهيد(*):

"إنَّ قلبي ليكاد ينفطر حسرة على شعبنا المستعبد في هذه الأرض، لقد أضحى خادما لهذا الملجأ المقيت، يرفع المستعبدون بأيديهم دعامات إذلالهم، يشيدون معقل الغطرسة والطغيان. ولكن صدقني، حينما يظهر من بينهم المنتقمون سوف ترتفع أيديهم ضد من اُضطهدوهم. وسيحطمون بأنفسهم هذه الحصون المريعة، معقل خزيهم واسترقاقهم " (1).

هكذا يدعو "أمريكي" من البيرو إلى تحرير شعبه الذي حوله الإسبان إلى رقيق، إن الدراما التي كتبها فولتير بعنوان "آلزير" أو "الأمريكيون" والتي أخرجت للمسرح لأول مرة سنة 1736 تشفق على مصير عبيد العالم الجديد وتتعاطف مع ثورتهم وتساند المصالحة النهائية القائمة على أساس الحرية للجميع.

وخلال عرض للمسرحية سنة 1766 على متن سفينة الكونت أيروفيل، انبهر جوزيف موسنيرون بالأبيات الشعرية التي سمعها على الرغم من أن شخصية الأميرة إيلزير تقمصها بحار قوي البنية ذو عضلات مفتولة، وكان تحت خشبة هذا المسرح مئات من البشر يقبعون في قعر السفينة، جلبوا من إفريقيا في حالة مزرية لنقلهم إلى جزر الكاراييب.

2- المثلث الرهيب:

فبماذا يفسر هذا الفصام؟ إنّه موجود في نص فولتير نفسه، فبالرغم

من ورود عبارة استعباد ''الأمريكيين'' في هذا المؤلف إلا أنه تحاشى أي ذكر لسوق العبيد عبر القارات التي يجلب إليها الأفارقة، والتي كانت في أوجها في الحقبة التي كتب فيها فولتير هذا الكتاب، أثناء سرده لبعض فصول قصة الكونت وقد أشار الباحث الجامعي كريستوفر ميللر في مؤلفه: ''المثلث الفرنسي الأطلسي

"The Frensh Atlantic Triangle"،

إلى ''أن البحارة- ومعهم فولتير- كانوا يكيلون بمكيالين إلى درجة أنهم يبدون الأسف والتعاطف مع أميرة البيرو، بينما يقبع تحت أرجلهم أفارقة مكبلون بالسلاسل ينتظرون موعد الإبحار الكبير، وتنتظرهم عيشة الرقيق هذا إذا بقوا على قيد الحياة''.

ويتجسّد هذا التناقض في نص الرواية في شخصية موسنيرون: فهو من مروجي تجارة الرقيق التي تفتك بجسد القارة الإفريقية وهو في نفس الوقت رجل حداثي يواكب زمانه، يقرأ ما جادت به قريحة الفلاسفة وخاصة جون جاك روسو. وبالرغم من تنديد الكتاب الفرنسيين بإبادة إسبانيا لهنود أمريكا التي عرفت تاريخيا بتطرفها الكاثوليكي(2)، فإنّهم تغاضوا عن الخوض في مسألة السفن التي تمخر عباب البحر انطلاقا من بوردو أو نانت وعلى متنها شحنات من ''خشب الآبنوس'' وهي تحمل، في بعض الأحيان، اسم فولتير أو العقد الاجتماعي...

وخلال القرن الثامن عشر الذي جابه فيه الفلاسفة غطرسة الملكية واستبدادية الحكم وسيطرة الكنيسة، توسعت تجارة الرقيق لتصل ذروتها، فقد وصل العدد الإجمالي للرقيق قرابة مليون و 100 ألف عبد إفريقي نقلوا عبر فرنسا إلى مستعمراتها: الغوادلوب، لامارتينيك، جزيرة بوربون، لارينيون، جزيرة فرنسا التي أصبحت فيما بعد جزيرة موريس، إلخ... وخاصة سانت دومينغ وهايتي قبل المنع النهائي لهذه ''التجارة'' سنة 1831 الذي تلاه منع تجارة الرقيق في ,1848 حيث تم ترحيل 80 منهم في القرن الثامن عشر من بينهم 270 ألف خلال عشرية الثمانينات من ذلك القرن.

لم يكن من السهل اعتبار الاسترقاق في فرنسا قضية وطنية، لذلك تمّ اللجوء إلى طرق ملتوية لتحقيقه: بموجب المرسوم الصادر في 03 جويلية 1315 مفاده منع إمكانية الاسترقاق داخل تراب المملكة(3)، وعندما ازدادت الحاجة إلى اليد العاملة في القرن السادس عشر، تمّ استغلال الأيدي المحلية التي لم تكن تفي بالحاجة، لذلك تمّ استقدام ''المتطوعين'' البيض الذين دفعت بهم الحاجة للاغتراب خارج فرنسا بإمضاء عقود مدتها ثلاث سنوات، ولم تكن حالتهم أفضل من ''السود'' فلم يكونوا يتلقون معاملة أحسن.

في مقال لناقد مجهول، بعنوان ''في ضرورة اعتماد الاسترقاق في فرنسا''

(4) De la nessité d'adopter l'esclavage en France

يشير كاتبه إلى الفقراء الذين تمّ تشغيلهم مثل الرقيق السود يقول: ''أيّا كان الاحتقار سواء أكان طبقيا أم عرقيا، فإنّه في الحالتين استغلال الأقوى للأضعف''.

في نهاية القرن السادس عشر، بدأت الأمور تتغير بتناقص عدد البيض المنخرطين في ذلك النمط من الاُستغلال كما تعرّف الناس على وضعهم البائس، في حين شهد اقتصاد الجزر تحولات كبيرة مع توسع زراعة قصب السكر المربحة والتي تتطلب عددا كبيرا من الأيدي العاملة، لذلك وبعد تردد سلكت فرنسا النهج الذي اتبعه الإسبان والبرتغاليون منذ أمد بعيد.

ارتبطت العلاقات بين أضلاع ''المثلث العابر للأطلسي على هذا النحو، وكانت فرنسا نقطة انطلاق السفن المحملة بالبضائع، وخاصة الأقمشة، الخمور، البارود، إلخ...من جهة وإفريقيا التي تتمّ بها مقايضة السلع بالعبيد وجزر الكاريبي التي تتبادل هذه اليد العاملة بالسكر الذي أولعت به صفوة المجتمع من جهة أخرى، في خضم جدل حول كيفيات توسيع الاُسترقاق.

لاحظ ميللر بأنّه خلال القرن الثامن عشر لم يكن هناك اُعتراض قوي بين

الأوساط الثقافية على تجارة العبيد على الرغم من ظهور المبادئ المناهضة للاُسترقاق التي بقيت مجرّد تأمّلات نظرية.

3- خطاب عصر الأنوار المزدوج:

فعلى سبيل المثال، تطرق "مونتيسكيو Montesquieu " في الكتاب العاشر من روح القوانين "L'esprit des lois" الصادر سنة 1758 في بعض صفحاته إلى مسألة الاسترقاق مقتصرا على إشارات عامة للتاريخ القديم في اليونان وروما. ولكنّه خصص فصلا صغيرا ساخرا حول تجارة العبيد السود، وقد برره في فصول أخرى بإرجاعه إلى الاختلاف المناخي بين إفريقيا وأوروبا محذرا من مغبة إزالته بسرعة، في رسالة ميللر لـ: مونتيسكيو ما يلي: "إنّ اُستبعاد الاسترقاق لا يعني سوى شعوب إحدى قمم المثلث الأطلسي وهي فرنسا وأروبا على العموم، ولكن يمكن تبرير ممارسته في القمتين الثانيتين وهما إفريقيا وجزر الكاريبي، أي أن مونتيسكيو يرفض الاسترقاق في بلاد الشمال ويبرر ممارسته في بلاد الجنوب.

لا نجد في مؤلف آخر لروسو: بعنوان "هيلويز الجديدة" La nouvelle Hélois1761 أي إشارة لمسألة الرقّ ومع ذلك، فهو يكتب في العقد الاجتماعي الجملة التالية بدون أن يؤنبه ضميره: بالنسبة لكم، أيتها الشعوب الحديثة، ليس لديكم عبيد، لأنكم أنتم العبيد". وما لاحظه ميللر هو أن "العبيد المكبلين، بالأصفاد، ليسوا أصلا ضمن حيز تفكيره. ولبث الأمر على ما هو عليه حتى ظهور ميرابو وبيرناردان دي سانت بيار "L'histoire de deux indiens" "حكاية الهندين" للقس رينال، الذين ارتووا بفكر دونيس ديدرو، وبدأت تظهر أخيرا بعض الكتابات المنتقدة للاسترقاق واعتباره ممارسة لا إنسانية.

تفسر هذه المواقف قلة عدد المنادين برفع الاسترقاق في فرنسا، مقارنة بعددهم في اُنجلترا، وقد لاحظت المؤرخة ف.فيرجيس بأنه "خلال الثورة الفرنسية، لم تنظم أي تعبئة ضد الاسترقاق. تكفي مقارنة ما قام به سكان قرية شامباني الصغيرة الذين

طالبوا في سجل الشكاوى إنهاء الاستعباد، بنظرائهم الإنجليز الذين قاموا بجمع 102 عريضة مطالبة بإزالة الاسترقاق والتي تم رفعها في 1788 إلى البرلمان الإنجليزي، بالإضافة إلى جمع 20 ألف توقيع (من مجموع 75 ألف من السكان) في 1791 بمانشستر وهي المدينة الصناعية التي تضم أكبر عدد من الرقيق"(5) فبينما تبنت النخبة في فرنسا قضايا إنسانية نظرية باسم مبادئ لا يمكن المساس بها، بدأ الشعب في إنجلترا منذ 1791 في جمع توقيعات ما يقارب 13 من الشعب الإنجليزي (الذكور) لعرائض مناهضة للاسترقاق، وهذا ما أعطى هذه الحركة صبغة شعبية.

لا يقتصر عمل ميللر تحت عنوان "أدب وثقافة تجارة الرقيق" على ما كتبه الفلاسفة. فهو يتابع مسألة الرقّ عبر ثلاث مراحل، أولها قصص الخيال التي كانت مواضيعها الأساسية حول تجارة العبيد، وقد برزت في المرحلة الأولى أديبات من النساء في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر مثل أوليمب دوستايل، وكلير دوراس وغيرهن اللواتي تميزن بإحساسهن المرهف بمعاناة العبيد، لم يحظ ذلك الأدب بأيّ اُهتمام فقد كان ضحيّة التعصب ضد "الزنوج"، وظهر في المرحلة الثانية الكتاب الرومانسيون من حقبة ما بعد التجديد التي تميزت بالاهتمام بالمغامرات البحرية والقصص الملحمية، ولكن لم يتعرّف عليها القراء بالقدر الكافي ونجدها على الخصوص في كتابات بروسبر ميريمي، وأوجان سو، والبارون روجي، وإدوارد كوريبار، وأخيرا وبعد أمد طويل ظهر كُتّاب جزر الكاريبي الذين أعادوا قراءة تاريخ الاسترقاق للخروج من الصورة المشوّهة التي رسمها البيض للزنوج وهي صورة أخرجتهم من الحقوق الأوليّة لكل البشر وخاصة بعد تزايد التهجين (الزواج المختلط بين البيض والسود)، وقد ساهم كل من إيمي سيزار(6) إدوارد غليسون، ماريز كوندي في تصحيح تلك الصورة المشوّهة.

وبالنسبة لميللر، ليس الأمر مجرد عملية استقراء لأعمال تطرق أصحابها إلى الاسترقاق، ولكن يتعداه إلى محاورة ميريمي وغليسون وفولتير وسيزار، ومحاولة معرفة طبيعة العلاقات بين القمم الثلاث للمثلث الأطلسي وكيفية تسيير تجارة العبيد.

وهكذا، تمّ عرض مسرحية ألزير، المذكورة آنفا، بصورة دورية في سانت دومينغ ما بين 1765 و 1782. بعد عزل العبيد والهجين في مؤخرة الركح لحضور العرض. ومما لا ريب فيه أنهم، على عكس ما جاء به فولتير وموسنيرون، كانوا يدركون الفرق بين مصير العبيد الذين أسرهم الإسبان.

بدأت أفكار القرن الثامن عشر تتجسد في سانت دومينغ. وهكذا، أطلق اسم ألزير على 24 امرأة من العبيد ما بين 1778 و 1820 بالإضافة إلى قراءة محرر الجزيرة توسان لوفارتور(7) للقس رينال الذي بشر بقدوم ''سبارتاكوس أسود''.

وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر، أثناء إصدار أوليمب دوغوج والسيدة دوستايل لروايتهما حول الاسترقاق، نشطت في كل من فرنسا وبريطانيا حملة ضد تجارة الرقيق والمستعمرات بقيادة تيار يدعو إلى مستقبل أفضل، وهو التيار الذي يضمّ المثقفين الليبراليين (أمثال آدم سميث أو إيدموند بورك)(8) ألم تخرق الدول المستعمرة مبادئ السوق الحرة بتصدير بضائعها المتواجدة فيما وراء البحر بصورة إلزامية للبلد الأم وشراء مقابل ذلك ما ترغب فيه فقط؟

4- وجهان لليبرالية الأوروبية:

إلا أنه بعد خمسين سنة، تخلى مؤيدو هذا التيار (جيمس ميل، جون ستيوارت ميل، أليكسيس دي توكفيل) عن تبنّي أفكار من سبقوهم واعتمدوا التوسّع الكولونيالي، على الرغم من تمسّكهم بالتبادل الحر والمهمة الأساسية للسوق. إنّ هذا التحوّل الداعم لامبريالية الليبراليين هو

موضوع كتاب مهم للباحثة الجامعية الأمريكية جنيفر بيتس بعنوان "ولادة الضمير الاستعماري". تابعت فيه مراحل التغير التدريجي في النظريات التي تأثرت بما طرأ على بعض المفاهيم التي كانت تحتقر شعوب الجنوب، وتعتمد التصنيف الثنائي للبشر إلى همجيين متوحشين ومتحضرين وقد اُهتمت الباحثة بدراسة "المنعطف نحو الإمبريالية" (Turning to Empire)، من خلال مؤلفات بعض المفكرين الكبار في تلك الحقبة.

نجد في صفحاته إعادة اكتشاف المفكرين الليبراليين الذين لطالما ورد ذكرهم ولكن قراءة كتاباتهم كانت قليلة جدا، كما وضحت الفروق التي تفصل بين الليبرالية الكلاسيكية وما يطلق عليه اليوم الليبرالية الجديدة(9) ولقد تواصل اهتمام آدم سميث ومن جاء بعده بدراسة التجمعات الإنسانية ولا نجد في أبحاثهم ما يشير إلى ما آلت إليه الليبرالية عند رئيسة الحكومة السابقة مارغريت تاتشر التي أنكرت وجود المجتمع (There is no such thing as society وعلى العكس، فقد قام المنظرون الأوائل بأبحاث معمقة لدراسة المجتمعات الأوروبية وتلك التي اكتُشفت فيما يعرف بالعالم القديم، من جزر أقيانوسيا حتى القارة الأمريكية.

أيّد هؤلاء الباحثون التوجّه الإنساني وترسخت لديهم قناعة بأن كل الكائنات البشرية لها منطق معقول يطبقونه في حل مشاكلهم، وفي نظرهم ليس هناك ثقافة في مجملها، أفضل أو أقل شأنا من ثقافة أخرى، إنّ تعدد الأديان والثقافات يمثّل أجوبة لوضعيات مختلفة.

قدم آدم سميث آراءه في كتابه "نظرية العواطف الأخلاقية" وأشار مثلا إلى عادة الأمريكيين الهنود بشد رؤوس المواليد الجدد، والتي اعتبرها المبشرون هجمية وغير عقلانية فإنه يرى أنّها ليست أكثر لا معقولية من الارتداء الإجباري للكورسية لدى النساء في أروبا وأمريكا على الرغم من علمهن بآثاره السلبية على صحة المرأة، أدت به هذه الرؤيا إلى إدانة كل ما من شأنه أن يؤسس لفكرة التفوق الكلي للمجتمعات الأوروبية.

حدثت تحولات عميقة في عالم نهاية القرن 18 والعقود الأولى من القرن 19 فبينما كانت أكبر حصة للصناعات والتّصنيع في العالم تتركزّ في الصين والهند فرضت أوروبا تفوقها خلال القرن التاسع عشر لأسباب عديدة منها الغنائم الناتجة عن احتلال أمريكا واستيطانها، والأرباح الناجمة عن التجارة المثلثية التي أشرنا إليها فيما سبق، وخاصة التحكم في تقنيات الحروب، فقد مكّن تزايد الصراعات في أوروبا بين أقطارها من اُكتساب قدرات على تعبئة مواردها لحملات عسكرية طويلة الأمد، لم تتوفر لدى أضخم الإمبراطوريات في الهند أو الصين، والتي كانت تفوض القادة المحليين أو القبائل لحماية حدودها البعيدة(10).

نتيجة لتلك التجارب، فإن حملات الغزو الناجحة بسبب التفوق العسكري كانت وراء تزايد الأُعتقاد بالتفوق ''الروحي'' و''الفكري'' للعالم الأوربي منذ تلك الفترة وهو أمر ينطلق من مفاهيم فلسفية خاصة، حتى أن البعض ينسبها إلى اليونان القديمة(11)، بالإضافة لذلك تولدت نظرة احتقار للحضارات الأخرى وبدأت في التنامي حتى أن تلك المجتمعات وصفت ب''الهمجية'' و''الراكدة'' وحسب ما رواه بيتس في كتابه، فلقد ظهرت دلائل نظرية مشتركة وخصوصا ذلك الشعور الذي ترسخ يوما بعد يوم فيما يتعلق بالعلاقات مع المجتمعات الغير أوروبية فالاعتقاد بالطبيعة التقدمية لحضارة أروبا أعطت الأوروبيين الحق في وضع القيم الفكرية والسياسية، لغيرهم من الأقوام، والتي لطالما حرموا منها هم أنفسهم.

وتعتبر السياسة التي اتبعها البريطانيون في الهند أكبر دليل على ذلك، ففي منتصف القرن التاسع عشر، بدأ يندثر ذلك الاهتمام الذي أولاه البريطانيون للحضارة الهندية، ''كتب بيتس يقول: كانت في السابق تظهر علامات الإعجاب بهذه الحضارة وإبراز ذخائر الثقافة الهندية لدى أعلى مراكز الإدارة وحتى لدى البريطانيين الذين يسعون إلى التوسع الإمبراطوري وخلال القرن الثامن عشر، كان للمستشرقين المعجبين بالحضارة الهندية مكانتهم ضمن دوائر الإدارة الاستعمارية حتى أنه كان لهؤلاء الحكام ميول للثقافة والتقاليد الهندية (يلبسون الثياب المحليّة،

ويتأقلمون مع عاداتهم، يتزوجون من هنديات، الخ) ومع حلول سنة 1850 بدأت الأمور تتغير وحلت نظرة احتقار للأهالي بقيت حتى اُستقلال الهند.

5- توكفيل الداعية للتوسّع الكولونيالي في الجزائر:

في فرنسا، أشار ألكسي توكفيل، في ظروف مغايرة لهذا التوجه نحو الإمبراطورية فلم يكن مجرد داعية للفكر الاستعماري، بل كان من الدعاة المتمرسين، حيث أنه قدم العديد من النصائح والتقارير للحكومة الفرنسية حول الجزائر، وكان في نفس الوقت قلقا بشأن المخاطر التي قد تنجم عن الديموقراطية الليبرالية ومشجعا لمواصلة استكشاف مناطق ما وراء البحر لكونها من العوامل التي ترسخ الإحساس بالعظمة الوطنية بين صفوف الشعب الفرنسي، كما أن من شأنها إبعاد الشعب الفرنسي عن الاحتجاجات الاجتماعية.

ولقد تم تنظير حق الدول الأوروبية الكبرى في الاسترقاق منذ سنة 1550 من طرف جوان جيناس دي سيبولفيدا وفي مناظرة له مع بارتولومي جي لاس كازاس، عارض هذا الأمر قائلا : هل بإمكاننا تقليص عدد الهنود في الاسترقاق؟- ودافع عن حق إسبانيا في إخضاع شعوب أمريكا.

ويعود الفضل لمقال إيمانوال والرستين عن الاُستعلائية الأوربية فقد أشار إلى أهمية فكر دي سبولفيدا والحجة الأولى لتبرير الاستعلاء هي أن الأمريكيين الهنود "همجيون، بسطاء، أميون، عديمو التربية (...) عيوبهم كثيرة ويمتازون بالقسوة، هم جنس من الأفضل أن يحكمهم الغير، إن الاستعباد الإسباني ضروري وهو يعتبر "كتصويب وعقاب على الجرائم المرتكبة ضد قانون الطبيعة والقانون الإلهي..." وهو يقول إنّ هذا القانون الإلهي هو الذي يسمح للإسبان بمنع انتشار السوء ويزيل الآفات الكبرى التي ألحقها الهنود بعدد كبير من الأبرياء ونجد في النهاية الهدف الأهم ألا وهو: أن السيطرة الإسبانية سمحت بالتنصير المسيحي ونجد فيما كتبه والرستين الحجج الأربع الأساسية التي لطالما

استخدمت لتبرير ''تدخلات'' ''المتحضرين'' من العالم المتطور في مناطق غير متحضرة وهي:

1- همجية الآخرين.

2- واجب وضع حد للممارسات التي تخرق القيم الكونية.

3- الدفاع عن الأبرياء في مواجهة قسوة الآخرين، ضرورة تسهيل انتشار الأفكار الحضارية العالمية Universelles.

ما هي العلاقة بين فكرتي ''تفوق أروبا و''التقدم''؟ قاوم ماري نيكولا بحزم ذلك التوجّه ودافع عن المساواة بين الرجل والمرأة ومحاربة التمييز العنصري، وأُعتُبر أحد نقاد سياسة الاستعمار وأكثرهم إصرارا على إدانته، كما أنه دافع دوما عن فكرة وحدة الجنس البشري، ويوضح بيتس أنه على الرغم من إدراكه للتقدم كعملية شاملة يتم من خلالها التقليل من النقائص، كلما ازدادت المجتمعات تقدما نحو معرفة الحقيقة على الصعيدين العلمي والفكري، وقد قادته نظريّته في إمكانية التقدّم والتطوّر في خط مستقيم إلى اعتبار الممارسات الاستعمارية خاطئة ومنحطة ولا علاقة لها بالسياسات الرشيدة للعلاقات بين الأمم التي يمكن أن تتطور مع اُحترام أنماط معيشتها وثقافاتها.

قدم كوندورسيت شروحات في كتابة ''نبذة تاريخية'esquise من خلال رسمه لجدول تاريخي حول تطور الفكر الإنساني، حيث أقر بقرب حلول اللحظة التي يصبح فيها ''الأوربيون'' بالنسبة لغيرهم متخلفين في حاجة إلى تدريب وتحرير ليكونوا متحضرين، وستكون نهضة الشعوب الموصوفة الآن بالمتخلفة أكثر سرعة لأنهم سيجدون ما كان علينا نحن اكتشافه موجودا باُعتباره حقائق بسيطة يمارسونها بمناهجهم الخاصة، بينما نحن لم نصل إليها إلا بعد فترة مطولة من الأخطاء وستكفيه التطورات التي شهدها عالمنا وما هو مسجل في كتبنا مشقة البحث عنها من جديد.

6- أوروبا الاثنوسانترية هل هي مستقبل العالم؟

تستحق الفكرة السائدة عن أروبا والغرب عموما بأُعتبارها المركز الأكثر تقدما للحضارة وتختزل وحدها مستقبل الكرة الأرضية، وكذلك فكرة التطور الارتقائي من البربرية نحو التحضر نقاشا معمقا، وهو الموضوع الذي عني به العلماء الانغلوسكسون تحت عنوان دراسات ما بعد الاستعمار Postcolonial Studies وفي كتاب محرض وشائك بعنوان مثير حول أوروبا الإقليمية Provincializine Europe قدم ديبش تشاكرابارتي تحليلا نقديا للرؤيا التي تزعم بأنّ: ''أوروبا أولا، سواها ثانيا''، والتي كانت حافز ماركس في التصريح بأن ''أكبر البلدان تصنيعا تقدم للبلدان الأقل تطورا صورة مستقبلها الخاص'' لقد خصصت للشعوب غير الأوربية حسب تعبير تشاكارتي ''قاعة انتظار افتراضية في مسار التاريخ'' هذا التاريخ الذي أصبح يقاس بالبعد الثقافي بين أمم الغرب وغيرها من أمم العالم.

غير أنه لا ينبغي إساءة الظن بالكاتب، فبالنسبة إليه، لا يتعلق الأمر بالعودة إلى تحليل مآل العولمة كما يراه ماركس الذي يضع، بالفعل، كل الشعوب في منظومة واحدة لتاريخ مترابط أكثر فأكثر، كما بين ذلك في خلاصة تحليلاته الفلسفية.

7- خلاصة:

عند متابعة التناقض والصراع بين الرؤيتين السابقتين (ليبرالية تجريدية وممارسة للتوسع الكولونيالي والاسترقاق) نجد في وقائع التاريخ ما يسمح بنقدهما معا، ومتابعة ما آلت إليه الرأسمالية من امبريالية تمحو كل وعود التيارات الإنسانية التي بقيت مجرد وعود ينبغي أن تبقى هدف الكفاح الجماعي من أجل أُنسانية تقبل التعايش بالفعل في ظل اختلافاتها المذهبية وأُنتماءاتها العرقية.

خلاصة القول، أن الحلّ لا يكمن في التخلص من الفكر الأوربي، بل

بتحريره من ظلامية الإمبريالية وتوظيفه ليستفيد الجميع من إيجابياته على غرار ما قام به مناضلو الحرية عبر العالم مثل هوشي منه في فيتنام وسان يات صن في الصين وسيمون بوليفار في جنوب أمريكا والمهدي بن بركة في المغرب.

إحالات

(*) العناوين الفرعية من اقتراح المترجم

1-نقل عن النص الأصلي لمسرحية فولتير،

www.voltaire-integral.com/htlm/03/08Alziri.htm

2- العديد من ترجمات الكتب الإسبانية المنددة بمصير الهنود موجودة بفرنسا منذ القرن 16عشر، من بينها كتاب لاس كازاس، وعلى الأخص "طغيان ووحشية الإسبان في الهند الشرقية"

Tyrannies et cruautés des Espagnols

حيث صدرت الطبعة الأولى في 1579, أنظر/ إدوارد دار بيشير سيبر الرأي المعادي للاستعمار في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر

Anti-slavery opinion in France during the second half in the eighteenth century

بارت فرانكلين، نيويورك، 1970 (الطبعة الأولى1937)

3- لم يطبق هذا المبدأ بصورة مطلقة، حيث تواجد عدد معين من العبيد في فرنسا المتروبول (أي المتواجدة في أروبا وليس المستوطنات) أنظر، بيار ح.بول "الأعراق والاستعباد في فرنسا النظام القديم

Race et esclavage dans la France de l'ancien régime، بيرين، باريس. 2007

4- نص مجهول بتاريخ 1797, تقديم، ميريام كوتياس وأرليت فارج، بايار، باريس. 2007

5- إلغاء الاستعباد الوهم الكولونيالي أ. ميشيل، باريس. 2001

6- قدم ميللر توضيحات مطولة حول مفهوم سيزار حول "الزنوجة" negritude وساعد على تكوين نظرة جديدة للسود.

7-حول لوسان لوفارتور، انظر، دافيد بريون دافيز، الثورة التي قلبت حال العالم الجديد، الذي يذكر فيه كتاب ماديسون سمارت بال وتوسان لوفارتور، أعمال الجنوب، أرليس 2007 (المجلة الدولية للكتب والأفكار، عـ: 2, باريس، نوفمبر ? ديسمبر 2007) اقرأ بيان الكتاب ، ص. 24

8- مفهوم التحررية يضم مفارقة تاريخية بما أنه لم يحمل معناه الحقيقي إلا في القرن التاسع، وبالنسبة لجنيفر بتس فإن هذا المفهوم يضم تقاسم عدد معين من القيم: المساواة والحرية وسيادة القانون ومسؤولية الحكام.

9- أنظر François dzenord, Néo-libéralisme version Française, Demopolis, Paris, 2007.

10- نشرت هذه التوضيحات من طرف المؤرخ البريطاني كريستوفر أ. بايلي في 1780

Naissance du monde moderne, le monde diplomatique- l'atelier, paris 2006

11- حول لا معقولية فكرة إرث اليونان في أروبا، أنظر

Marcel Détienne, les Grecs et nous, perrin, paris 2005.

كتابـــــي - الاستشـراق -

بـعـــد خمس وعشريـــن سنـــة

إدوارد سعيـد

ترجمة: محمد يحياتـن - جامعة تيزي وزو-

منذ تسع سنوات خلت، كتبت ضميمة post face لكتابي الاستشراق قامت. وهي تحاول توضيح ما كنت أظن أني قلته أو لم أقله. بالإبانة عن العديد من النقاشات التي حصلت منذ صدور كتابي في 1978 وكذا ما جعل كتابا حول تصورات الشرق يفضي إلى تأويلات خاطئة متزايدة. و أن أشعر اليوم بالسخرية حيال هذا الموضوع أكثر من شعوري بالانزعاج فهو دلالة على أني شخت دون أن أحس بذلك. إن وفاة اثنين من أساتذتي المفكرين والسياسيين والشخصيين الأساسيين حديثا، وهما أحمد إقبال وإبراهيم أبو لغد قد أثارت إحساسا بالحزن والفقدان وكذا القبول بالقضاء والقدر مع بعض الإصرار على المواصلة.

في مذكراتي الموسومة ضد التيار (1999)، وصفت العوالم الغريبة والمتناقضة التي ترعرعت فيها، مزودا نفسي وقرائي برواية مفصلة للحالات في فلسطين ومصر ولبنان التي ساهمت في نظري في تكوين الشخص الذي أصبحته. غير أن هذه الرواية شخصية للغاية لم تشر إلى التزاماتي السياسية التي بدأت بعد الحرب العربية الإسرائيلية في 1967.

الاستشراق: هو بالفعل كتاب مرتبط بالحركية المضطربة للتاريخ المعاصر. تنفتح صفحته الأولى على وصف 1975 للحرب الأهلية اللبنانية التي انتهت في 1990, بيد أن العنف وإراقة الدماء البشرية الرهيبة لا يزالان قائمين على أيامنا. فقد شاهدنا إخفاقا في مسار السلم لبرشلونة واندلاع الانتفاضة الثانية والعذابات المريعة للفلسطينيين في الضفة الغربية

وقطاع غزة اللتين أعيد احتلالهما. كما برزت ظاهرة الاعتداءات الانتحارية مع آثارها الفظيعة، علما بأن لا أحد من هذه العمليات تضاهي بالطبع ذلكم الحدث الأبشع المهول الذي حصل في 11 سبتمبر 2001 ومستتبعاته في الحروب ضد أفغانستان والعراق. وبينما أنا أكتب هذه السطور، يتواصل الاحتلال الإمبراطوري غير الشرعي للعراق من قبل إنجلترا والولايات المتحدة. إن عواقبه يصعب مشاهدتها. وهذا الأمر جزء مما يفترض أنه صدام الحضارات دون نهاية، فهو أمر محسوم ومبرم. وأيا كان الحال، فأنا لا أؤمن به.

كنت أتمنى أن أستطيع القول بأن الفهم العام للشرق الأوسط والعرب والإسلام في الولايات المتحدة قد تحسن قليلا. ولكن يا للأسف، ليس الأمر كذلك. إن الوضع في أوربا يبدو أحسن بكثير وهذا لأسباب متنوعة. في الولايات المتحدة ألفى تصلّب المواقف وهيمنة التعميمات المختزلة والأفكار الجاهزة المنمطة وطغيان القوة الفظة المرتبطة بالاحتقار التبسيطي حيال ''المنشقين'' و''الآخرين'' صلته المناسبة في نهب وتحطيم المكتبات والمتاحف العراقية. إن ما يعجز حكامنا وأذنابهم على إدراكه هو أن التاريخ لا يمكن محوه كما تمحى السبورة السوداء، كي نقوى ''نحن'' على كتابة تاريخنا المستقبلي وفرض رؤانا للحياة على هذه الكائنات الضعيفة كي يقتفوا آثارها. بل درجت العادة بالأحرى أن نسمع شخصيات رسمية في واشنطن وغيرها تتحدث عن إعادة رسم خارطة الشرق الأوسط وكأن مجتمعاته القديمة وشعوبها المتعددة يمكن صهرها كما تصهر الحلويات في جرّة، وهو ما حدث في كثير من الأحيان مع ''الشرق''، هذا التصور نصف الأسطوري الذي بني وأعيد بناؤه مرات عديدة منذ غزوة نابليون إلى نهاية القرن الثامن عشر. في هذه السيرورة، أبعدت أو أهملت رواسب التاريخ العديدة المتكونة من تواريخ كثيرة وتنوّع مذهل للشعوب واللغات والتجارب والثقافات...

إن حجتي تكمن في أن التاريخ يصنعه الرجال والنساء كما يمكن أن يحطم أو يعاد كتابته كي يصبح شرقنا ومشرقنا ملكا يجب تسييره. إني لأكنّ احتراما جمّا لقدرات ومواهب شعوب هذه المنطقة من أجل الدفاع عن رؤيتها لأنفسها ولما تريد أن تكون عليه. لقد كان للهجوم الشرس المكثف والعنيف عن قصد على المجتمعات العربية والإسلامية المعاصرة ، لما هي عليه من تخلف وقلة الديمقراطية وإلغاء حقوق المرأة، من القوة بحيث نسينا ببساطة بأن مفاهيم من قبيل الحداثة والأنوار والديمقراطية ليست بأي حال من الأحوال مفاهيم بسيطة ومجمعا عليها يمكن العثور عليها كما بيض الفصح في الصالونات. إن لامبالاة الصحافيين المهولة الذين يتحدثون باسم السياسة الخارجية والذين لا علم لهم إطلاقا باللغة التي يستعملها البسطاء من الناس قد صنعت مشهدا مفجعا جاهزا كي تبني فيه القوة الأمريكية بديلا لديمقراطية السوق الحرة. فلا حاجة للعربية ولا الفارسية ولا حتى الفرنسية كي نظهر بمظهر العظمة للتصريح بأن مفعول دومينو الديمقراطية effet domino هو بالضبط ما يحتاجه العالم العربي.

وعلى عكس ذلك، ثمة اختلاف بين معرفة الشعوب الأخرى والأزمنة الأخرى، الذي هو نتيجة الفهم والمواساة والدراسة والتحليل المتأني لمصلحته والمعرفة التي هي جزء من إرادة الفهم بقصد المراقبة. أن تعلن حرب مبلورة من قبل زمرة صغيرة من الرسميين الأمريكيين غير المنتخبين ضد ديكتاتورية في العالم الثالث على أسس إيديولوجية صرفة لها صلة بالهيمنة على العالم ومراقبة الأمن والموارد غير الوفيرة، ولكنها مقنعة ومستعجلة ومعقلنة من قبل مستشرقين خانوا لقب العالم le titre d'érudit فهذا الأمر دون شك إحدى كوارث التاريخ الفكرية.

إن أهم رجال التأثير لدى البانتغون والمجلس الوطني للأمن لجورج والكر بوش كانوا أناسا من أمثال برنارد لويسB.Lewis وفؤاد عجمي F.Agami وخبراء العالمين العربي والإسلامي

الذين يساعدون الصقور الأمريكيين في التفكير في مثل هذه الموضوعات غير المعقولة التي هي من قبيل الروح العربية والانحطاط المزمن للإسلام اللذين لا يمكن أن تقضي عليهما سوى الولايات المتحدة. اليوم، تزخر رفوف المكتبات في الولايات المتحدة بخطب مملة دنيئة مصوغة في عناوين كبرى صاخبة حول الصلة بين الإسلام والإرهاب والإسلام المكشوف والتهديدات العربية الإسلامية ، كلها من وضع سجاليين polémistes سياسيين يزعمون كغيرهم بأنهم ورثوا علمهم عن خبراء ولجوا قلب هذه الشعوب الشرقية الغريبة. إلى جانب هذه الخبرة الحربية، هناك س.ن.ن CNN وفوكس Fox دون حساب جحافل المنشطين للإذاعات التبشيرية واليمين والعديد من الجرائد المصغرة الشكل والعادية التي تكرر نفس الاستيهامات غير الأكيدة والتعميمات الغامضة لتحريض ''أمريكا'' ضد الشيطان الأجنبي.

فلولا الرؤية المبنية التي تزعم أن أناس تلك المناطق القصية ليسوا ''مثلنا'' وأنهم لا يحبذون ''قيمنا'' - صلب المذهب الاستشراقي التقليدي - لما حدثت الحروب. وهكذا انبثق عن مجلس العلماء المحترفين نفسه المأجورين المجندين من قبل الغزاة الهولنديين لماليزيا وأندونوسيا، والجيوش البريطانية في الهند الصينية وفي إفريقيا الشمالية، قلت انبثق مستشارون أمريكيون للبانتغون والبيت الأبيض، يعتمدون الأفكار المنمطة الرائجة نفسها والمعتقدات الاحتقارية ونفس تبريرات القوة والعنف (ألا تردد الجوقة بأن القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمون) في هذه الحال أو الحالات السابقة. هؤلاء الأفراد قد التحق بهم في العراق جيش برمته من المقاولين الخواص الشرهين الذين يجب أو يوكل إليهم كل شيء، من وضع كتب مدرسية إلى الدستور إلى غاية إعادة تشكيل الحياة السياسية العراقية وصناعتها البترولية.

كل إمبراطورية تؤكد في خطابها الرسمي بأنها ليست كالإمبراطوريات الأخرى وأن مهمتها تقوم على التنوير

والتمدين وتوفير النظام والديمقراطية وأنها لا تستعمل القوة إلا عند الضرورة القصوى. وفضلا عن هذا، فإن ما يبعث على الحزن أكثر هو أنه توجد دائما جوقة من المثقفين مستعدة لقول كلمات مهدئة حول الإمبراطوريات الحليمة الخيرة.

بعد خمس وعشرين سنة من صدور كتابي ، لا يزال الاستشراق يستثير مسألة معرفة ما إذا كانت الامبريالية الحديثة قد انتهت أم أنه تواصلت في المشرق منذ دخول نابليون مصر منذ قرنين. ويقال للعرب والمسلمين بأن الظهور بمظهر الضحية والإلحاح على ما اقترفته الإمبراطورية من آثام ليسا سوى طريقة للتهرب من المسؤوليات الراهنة. لقد أخفقتم، وضللتم السبيل - هذا ما يقوله المستشرقون المحدثون. وهذه هي أيضا مساهمة ف. نايبول V.S.Naipaul في الأدب بأن ضحايا الإمبراطورية يتألمون في حين أن بلادهم سائرة إلى الهاوية. لنعمل النظر في هذا الخط الذي يبتدئ مع نابليون ويتواصل في تنامي الدراسات الشرقية وغزو إفريقيا الشمالية ويستمر في غزوات مشابهة في فيتنام وفي مصر وفلسطين وفي القرن العشرين في الكفاح من أجل البترول والمراقبة الإستراتيجية في الخليج والعراق وسوريا وفلسطين وأفغانستان. ثم لننظر في بروز القومية المعادية للاستعمار والفترة القصيرة للاستقلال الليبرالي في عهد الضربات العسكرية والانتفاضات والحروب الأهلية والتعصب الديني والكفاح غير العقلاني والعدوانية الشرسة ضد آخر مجموعة «المولودين" natifs. كل هذه المراحل وهذه العهود تنتج معرفتها الخاصة المشوهة للآخر وصورها الخاصة المختزلة وسجالاتها الخاصة المشكوك فيها.

إن وجهة نظري في "الاستشراق" هي استخدام النقد الإنسي لتوسيع ميادين الكفاح وإدخال حقل للفكر والتحليل أكثر اتساعا يحل محلّ الانفجارات السجالية والمحدودة التي تكبلنا أيما تكبيل. أطلقت "الإنسية" humanisme على ما أسعى إلى تحقيقه،

وهو لفظ ما أزال استعمله رغم رفض هذا اللفظ من قبل نقاد ما بعد الحداثة السفسطائيين. إنني أعني بـ ''الإنسية'' أولا السعي إلى القضاء على ''القيود التي شحذها الفكر'' لبلاك Blake قصد التمكن من استعمال هذا الفكر تاريخيا وعقلانيا من أجل الفهم العميق. وفضلا عن ذلك، فإن الإنسية يدعمها الحس الجماعي مع مؤولين interprètes آخرين ومجتمعات ومراحل أخرى، وبهذه المثابة لا يوجد إنسي humaniste معزول.

وهذا يعني أن أي جزء مرتبط بالأجزاء الأخرى وأن لا شيء مما هو موجود في عالمنا لم يكن أبدا معزولا وخاما وخلوا من أي تأثير أجنبي. يجب علينا أن نناقش مسائل الظلم والعذاب في سياق موجود بشكل واسع في التاريخ والثقافة والواقع الاجتماعي الاقتصادي. فدورنا يكمن في توسيع حقل النقاش. لقد قضيت جزءا لا يستهان به من الخمس والثلاثين سنة الأخيرة من حياتي في الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره الوطني ولكن حاولت أيضا أن أفعل هذا دون إهمال واقع الشعب اليهودي وما عاناه جراء الاضطهاد والإبادة. فمن الأهمية بمكان أن يوجه الكفاح من أجل المساواة في فلسطين/إسرائيل صوب تحقيق أهداف إنسانية، أي التعايش وليس من أجل مزيد القمع والإجحاف. لقد بيّنت بشكل عرضي بأن الاستشراق ومعاداة السامية الحديثة يتقاسمان جذورا مشتركة. إن هذا يبدو ضرورة حيوية لدى المثقفين المستقلين المتمثلة في تقديم نماذج بديلة على الدوام تحل محل تلك النماذج المتناهية في التبسيط والمختزلة والقائمة على العداوة المتبادلة السائدة في الشرق الأوسط وغيره منذ أمد بعيد.

بحسباني إنسيا humaniste تخصصه الأدب، إني بلغت من العمر عُتيا حيث كُوِّنت (بضم الكاف) منذ أربعين سنة خلت في مجال الأدب المقارن الذي تدر أفكاره الأساسية من ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. قبل هذا، يجب عليّ أن أسجل مساهمة

جيانبتستا فيكو Giambattista Vico التجديدية، هذا الفيلسوف والفقيه اللغوي النابوليتاني الذي سبقت أفكاره أفكار مفكرين ألمان مثل هردر وولف متبوعين بعد ذلك بكثير بغوتة Goetheوهومبلدت Humboldt وديلتي Dilthey ونيتشه وقادامر Gadamer وأخيرا كبار فقهاء اللغة الرومانطقيين للقرن العشرين مثل أرك أورباخ وليو سبيتزر Spitzer وأرنست كرتيوس Ernst Curtius.

بالنسبة للجيل الحالي، توحي فكرة فقه اللغة نفسها بشيء عتيق وبال للغاية، رغم أن فقه اللغة هو في الواقع من فنون التأويل الأولية الخلاقة. ففي نظري وهذا بيّنه بشكل رائع اهتمام غوته بالإسلام بعامة وحافظ Hafizبخاصة، هذا شغف جمّ أدى إلى وضع ''ديوان الشرق'' وأثر على أفكار غوته الأولى حول الأدب الشرقي ودراسة جميع الآداب العالمية بوصفها مجموعة سنفونية يمكن أن تفسر نظريا بالحفاظ على فرادة كل مؤلف دون الذهول عن المجموع.

ثمة إذن سخرية هائلة مردّها إلى أنه في حين يقرّب الكون المعولم globalisé اليوم الناس على نحو من التماثل إلى ما ذكرته الآن، نقترب ربما من نوع التوحيد والتجانس اللذين صاغ غوته أفكاره ضدهما أساسا. لاحظ أرك أورباخ Auerbach في كتاب صدر له في 1951 هذا الأمر في بداية عهد ما بعد الحرب، الذي كان أيضا بداية عهد الحرب الباردة. كان كتابه الجيد ''Mimesis'' الصادر في برن في 1946 ولكنه كتب حين كان أورباخ منفي حرب يدرس اللغات الرومنية romanes بإسطنبول، قلت كان كتابه هذا بمثابة وصية تنافح من أجل التنوع والطابع العيني للواقع الذي يمثله الأدب الغربي منذ هوميروس إلى غاية فرجينيا وولف، بيد أن قراءة كتابه الصادر في 1951, تجعلنا نشعر بأن الكتاب الأكبر بالنسبة لأورباخ هو تقريض فترة كان الناس خلالها قادرين على تأويل نصوص بكيفية فقهية ـ لغوية عينية حدسية وشعورية، باستعمال معرفة وإتقان جمّ للعديد من اللغات لبلوغ نوع الفهم الذي كان غوته يدعو إليه لفهم الأدب الإسلامي.

إن المعرفة الإيجابية للغات والتاريخ كانت ضرورية، ولكنها لم تكن أبدا كافية، مثلها في ذلك كمثل المراكمة الآلية للظواهر التي لا تشكل طريقة مناسبة للإحاطة بما كان عليه مؤلف من طراز دانتي Dante مثلا. فالمطلب الأساس لبلوغ فهم فقهي لغوي كذلك الذي كان موضوع نقاش أورباخ وسابقيه، يكمن في استكناه محتوى نص مكتوب بلطافة وذاتية، عبر مشوار زمانه ومؤلفه. فبدل الاستيلاب والعداء حيال زمن آخر وثقافة مختلفة، يستلزم فقه اللغة كما طبقت على الأدب الشرقي روحا إنسية عميقة مفعمة بالسخاء و ـ إن جاز لي هذا القول ـ وكرم ضيافة. وهكذا يفسح فكر المؤول l'interprète بشكل جاد مكانة في نفسه لآخر أجنبي. هذا الخلق الفذ لفضاء مجعول لكتب أجنبية وبعيدة هو أهم وجه من وجوه مهمة المؤول.

كل هذا بالطبع قد لغّم وهدّم من قبل القومية الاشتراكية national-socialisme. بعد الحرب. لقد لاحظ أورباخ بشيء من السوداوية أن تنميط الأفكار والتخصص المتنامي للمعرفة قد قلصا فرص العمل الفقهي اللغوي المستقصي والفضولي على الدوام ، الذي مثّله ...

والأدهى والأمر هو أن التربية تهددها السنن orthodoxies القومية والدينية، التي تنشرها وسائل الإعلام الكبرى بتضخيمها دون إدراجها في أفق تاريخي وباعتماد التهويل والصخب حول الحروب الإلكترونية البعيدة التي توهم المشاهدين بالدقة الجراحية ولكنها تخفي في الواقع العذاب والتحطيم المريع الناتجين عن تقنيات الحرب الحديثة. إن الصور الإعلامية، من خلال تقديم عدو مجهول في شكل شيطان يطلق عليه نعت " إرهابي" لتحريض الناس واستعدائهم عليه، تلفت الانتباه بشكل مبالغ فيه ويمكن أن تسخّر في أوقات الأزمة واللاأمن كما حصل في فترة ما بعد 11 سبتمبر .

وبما أنني أتحدث باعتباري أمريكيا وعربيا، يجب عليّ أن ألتمس من

القارئ أن لا ينقص من شأن نوع رؤية العالم المبسطة المصوغة من قبل ثلة من النخب المدنية للبانتاغون بالنسبة للسياسة الأمريكية في العالم العربي والإسلامي برمته، وهي رؤية يمثل فيها الرعب والحرب الوقائية وتغير الأنظمة الأحادية ـ المدعومة بالميزانية العسكرية الأعظم في التاريخ ـ أهم الأفكار المناقشة دون نهاية وبشكل مختزل من قبل وسائل الإعلام التي منحت لنفسها دور إنتاج خبراءمزعومين الذين يزكون رأي الحكومة العام. أما التفكير والمناقشة والمحاجة العقلانية والمبادئ الأخلاقية المبنية على التصور اللائكي القاضي بأن تبدع الكائنات البشرية تاريخها الخاص فقد استبدلت بأفكار مجردة تحتفي بالاستثناء الأمريكي أو الغربي، وترفض وجاهة وحصافة السياق وتنظر إلى الثقافات الأخرى بازدراء.

قد تقولون بأني أستطرد استطرادات سريعة من جهة بين التأويل الإنسي ومن جهة أخرى السياسة الخارجية، وأن مجتمعا تكنولوجيا حديثا يملك في ذات الوقت قوة لا نظير لها والانترنت وطائرات ف 16 ، يجب أن يوجه من قبل تقنوقراطيين أفذاذ خبراء في السياسة مثل رونالد رامسفلد ورتشارد برل. ومهما كان الأمر، فإن ما ضاع حقا هو الإحساس بالكثافة وترابط الحياة البشرية اللذين لا يمكن حصرهما في صيغة أو عدهما خاليين من الوجاهة ومن ثم استبعادهما.

ها هو ذا وجه من وجوه النقاش الواسع. إن الوضع في البلدان العربية والإسلامية ليس أفضل. وكما يذهب إلى ذلك رولة خلف، ركنت المنطقة إلى ''نزعة معادية لأمريكا'' anti-américanisme سهلة تنمّ عن فهم ضعيف لماهية المجتمع الأمريكي. فلأن الحكومات عاجزة نسبيا عن التأثير في السياسة الأمريكية إزاءها، تستخدم طاقتها لقمع واحتواء سكانها، مما يولد الإحساس بالمرارة والغضب واللعنات اليائسة، التي لا تساهم قط في فتح مجتمعات واجهت فيه الأفكار اللائكية حول التاريخ البشري والتنمية إخفاقا وإحباطا مسبقا وإسلاموية مبنية على تعلم تقليدي مكرور وإغفال ما يعد

أشكالا من المعرفة اللائكية المنافسة. لقد كان الاندثار التدريجي للتراث الهائل الذي هو الاجتهاد الإسلامي أو التأويل الشخصي إحدى الكوارث الثقافية الكبرى لزماننا هذا والتي من آثارها اختفاء الفكر النقدي والكفاح الفردي ضد مشاكل العالم الحديث.

لا أريد من خلال هذا القول بأن العالم الثقافي قد تقهقر فحسب، من جهة صوب استشراق جديد عدواني ومن جهة أخرى صوب رفض عام. إن قمة الأمم المتحدة بجوهنسبرغ في العام الماضي ـ رغم حدودها ـ قد كشفت حقا مجموعة واسعة من الانشغالات العالمية المشتركة، الأمر الذي يوحي بظهور قوة سياسية جديدة مشتركة تقدم استعجالا جديدا لمفهوم كثيرا ما يعدّ بسيطا سهلا ألا وهو ''العالم''. غير أنه يجب الاعتراف ـ عبر كل هذا ـ بأن لا أحد يمكنه أن يدرك بالفعل التعقد الهائل لوحدة عالمنا المعولم ...

إن الصراعات الرهيبة التي تبقي الناس تحت تسميات توحيدية مزعومة مثل ''أمريكا'' و''الغرب'' و''الإسلام'' والتي تبتدع هويات جماعية لعدد هائل من الأفراد الذين هم في الواقع مختلفون، لا يمكنها أن تظل على مثل هذه القوة ويجب علينا أن نعارض ذلك. فلا يزال في حوزتنا مهارات التأويل العقلاني الذي هو إرث التربية الإنسية، لا بحسبانه ورعا أو تقوى عاطفية تدفعنا صوب العودة إلى قيم تقليدية أو كلاسيكية، بل كممارسة نشطة لخطاب عقلاني وعالمي ولائكي. إن العالم اللائكي يشكل التاريخ كما أنجزته المخلوقات البشرية. فالفكر النقدي لا ينصاع لأوامر تدعو إلى الانخراط في الصفوف من أجل مواجهة هذا العدو أو ذاك. فبدلا من صدام الحضارات المزعوم، يجب أن نعمل النظر في الثقافات التي تتداخل ويقترض بعضها من البعض الآخر وتتعايش بطرق أفضل مما تتيحه كيفية من كيفيات الفهم المختزلة أو غير الأصيلة. بيد أنه لبلوغ إدراك أوسع، نحن بحاجة إلى وقت كاف من البحث المتأني

والارتيابي المدعوم بالإيمان في تعاضد التأويلات التي يصعب ترقيتها في عالم يطالب بالفعل ورد الفعل الآنيين.

الإنسية تتركز على تمفصل الفردية والحدس الشخصي للإنسان، أكثر من تركزها على الأفكار الرائجة والحقائق المسلم بها. يجب أن تقرأ النصوص كنصوص أنتجت وتحيا في مملكة التاريخ بعدة طرق وصفتها شخصيا بالطرق العالمية. وهذا لا يقصي قط السلطة، بما أنني، على العكس، حاولت أن أبيّن مخاتلات وتداخلات السلطة حتى في أحلك الدراسات.

أخيرا، إن الأهم هو أن الإنسية هي المقاومة الوحيدة - بل أذهب إلى القول بأنها الأخيرة - التي في حوزتنا ضد الممارسات والتجاوزات غير الإنسانية التي تشوه التاريخ البشري. نحن اليوم نحظى بتشجيع الفضاء الديمقراطي الهائل الذي هو فضاء الإنترنت المفتوح لجميع المستعملين بكيفيات لم تحلم بها الأجيال السابقة من الطغاة أو السنن. فالتظاهرات الدولية قبل نشوب الحرب في العراق لم تكن لتتم لولا وجود جماعات بديلة في العالم كافة، أخبرتها مصادر بديلة وواعية جدا بالحقوق البيئية والإنسانية والغرائز الفوضوية التي تجمعنا في هذا الكوكب الصغير.

المقال الأصلي:

Vingt-cinq ans après la publication de { L'Orientalisme L'humanisme, dernier rempart contre la barbarie

عن **Le Monde diplomatique** سبتمبر 2003

نظرة جديدة للتاريخ الوطني أكثر من ضرورية (*)

محيي الدين جندر

ترجمة الدكتور العربي عقون - ج. قسنطينة-

عندما صدرت الطبعة الأولى من كتابنا: "مدخل إلى تاريخ الجزائر" سنة 1970, لم يكن التاريخ حينها محلّ جدل، وانشطار فكري، مثلما أصبح عليه الحال في سنوات الثمانينيات وعلى الخصوص في أواخر نهاية القرن العشرين.

لقد أظهرت لي الاعتبارات الأساسية التي برزت لاحقا أنّ إعادة إلقاء نظرة على الموضوع أكثر من ضرورية ليس كما تعوّدنا أن نقول أحيانا وبسهولة لنفض الغبار عن نص مضت عليه عشريتان ولكن لمعالجة مرحلة جديدة في سياق تطوّر مجتمعنا وتبعات ذلك على صعيد الدراسات التاريخية.

ما أشرنا إليه في 1969-1970 ولعلّ آخرين أفصحوا عنه أحسن منّي يظلّ انعكاسا- لما كان في وقت مضى يمثّل أمّة- للتصوّر الذي نحمله عن الأمّة ولأفكار مستقبل وليد.

إنْ كان هناك تغيّر أو تسارع في التطوّر، وإذا كنّا نشهد الآن جدلا حول مواضيع التاريخ فلأنّ ذلك يعود إلى أنّه:

1- طيلة سنوات بدايات الاستقلال - وعلينا أن نقرّ ذلك - كانت بعض مسائل الأيديولوجيات القومية قد شاخت وأن هناك استعداد لتجاوزها، وأنّ أفكارا جديدة قد نضجت حتى وهي لم تعلن عن نفسها.

2- وجوباً، ولحتمية تاريخية كان ينبغي أن تظهر على السطح قضية الهوية الأعمق للآمّة والعناصر المكتسبة على امتداد السنوات الثلاثين

من عمر الاستقلال بالاحتكاك مع الحداثة ومن التجربة المعاشة.

تستوجّب إذن نظرة جديدة، فالتاريخ لا يمكن تناوله كلّه مباشرة، لأنّه يتداخل مع الوقائع، والروايات البسيطة للأحداث، إن لم يكن واضحا من البدء ما ننتظره منه باعتباره قاعدة لثقافتنا، وانسجاما لعناصر وتيارات مختلفة بالضرورة، وهي التي تكوّن مجتمعنا وعلى الخصوص في الفترة التي نعيشها وهي فترة مستقرة على خلاف ما قد نظن، ولكنها ذات تطوّر عميق، ومهمّتنا هنا هي التفكير أولا في معالجة التاريخ كموضوع حتى قبل تناوله كمادّة.

كنت قد أشرت في الطبعة الأولى من هذه الدراسة إلى نص مؤرخ فرنسي من بدايات القرن XIX وهو أوغسطين تييري (Augustin Thierry) الذي وضع مبدأ في شأن ما ينبغي على كلّ جيل أن يضيفه للتاريخ الوطني من إسهامات في مدلولاته وتجلياته الفكرية بقدر ما هو معرفة بالوقائع والأحداث.

في كلّ الظروف العصيبة التي تعترض مصير الشعوب هناك الاضطرابات التي تؤثر في مختلف مناحي حياتها المادّية والأدبية، مما يشحذ الفكر ويجعله قلقا ومتسائلا فابن خلدون - الذي دوّن تاريخ أفريقيا الشمالية في كتابه العِبر ... عايش كشاهد عيان تلك الاضطرابات الكبرى التي أعقبت اكتساح الهلاليين: إضعاف المدن ووهن الدول وزوال الإمبراطوريات، وهو وضع يعبّر عن توتّر عامّ، ملموس لدى الفلاحين في ظروف عملهم والتجار في حال السوق المشتت ولدى الحرفيين في نضوب الصنعة، ولدى الحكام وأعوانهم في مصاعب إدارة شؤون البلاد، وهو ما جعله يتأمّل هذه الجوانب ويجعلها تتصدّر تاريخه وهو تأمّل شامل عامّ نظر فيه بدقّة إلى الماضي والحاضر والمستقبل محاولا تقديم تفسير لكلّ ذلك وهو ما نجده في المقدّمة التي هي عمل يتسم بالعمق والاتساع هو بحقّ فلسفة التاريخ.

ابن خلدون هو أعظم مؤرّخينا، عالج تاريخنا فكريا في أخطر قضاياه وأحداثه الكبرى، وكانت الحاجة إلى فهم حركة التاريخ قد فرضت نفسها على كُتاب أسبق منه وأقلّ إحاطة لكن تركوا لنا تراثا جديرا بالعناية، لاسيما وأنّه عبارة عن نصوص لافتة للانتباه مع أنّها غير معروفة كثيرا (وبذلك يتمّ

الإسهام في تعميق الدراسات المتعلّقة بتاريخنا وشخصيتنا الأصيلة) وفي هذا السياق نودّ الحديث عن أبي زكرياء (السدراتي الورجلاني) المؤلّف الإباضي الذي وضع كتابه: في تاريخ أئمّة تاهرت والجنوب الجزائري الإباضيين (حوالي 1070) وهو عمل استهلّه بالإشارة إلى القيمة الاجتماعية والفكرية للتاريخ، ومما جاء فيه:

((...عندما نلاحظ حجم الآثار التي طمست وعدد الذكريات التي ضاعت، تتجمع في الذهن ذكريات الشيوخ والصالحين من زمن مضى، من بين شخصيات الجماعة، نتذكر فضائلهم وأعمالهم وحركاتهم ونقاوة مذهبهم وسمو مناقبهم مما لا تحيط به أقلامنا على أمل أن ما كتبناه يكون نافعا... ويمكن أن يحيي ذكريات من سيأتون ويوقظ الغافلين لأنّ في التذكير بالماضي عبرة للمؤمنين)).(1)

هناك مثال آخر- مأخوذ به في بلاد أخرى غير بلادنا- يستجلي تلك النزعة للعودة بالتفكير في التاريخ من جديد إلى فترات الثورة، وهو ما نجده لدى أليكسيس دو طوكفيل في كتابه : " النظام القديم والثورة" الذي نشر سنة 1856 هذا الكتاب يشمل تاريخ ما قبل وما بعد الثورة ويبيِّن بدقّة وبروح نقد قلّ مثيلها أنّ التحوّلات الأكثر راديكالية يتمّ تحضيرها في البنى العميقة للمجتمع قبل أن تنفجر في شكل وقائع ثورية، هذه الدروس المستخلصة من كتاب طوكفيل يمكن أن تجد صداها عندنا لنتمكّن من فهم تاريخنا فهذا الكاتب يؤكّد لي في الفكرة التي استعرضتها في الفصل المتعلّق بالتحقيب وتبعا لتلك الفكرة فإنّ الممالك أو الإمبراطوريات البربرية من القرن X إلى القرن XIII (فاطمية، زيرية، حمادية، مرابطية، موحدية) لم تكن لتوجد لولا ذلك الإعداد البطيء لحضارة مستقرّة : فلاحية، صناعية، وتجارية على امتداد القرون العتيقة (l'Antiquité) من القرن III ق.م. إلى القرن VIII م ، أي أنّ هناك بشكل أو بآخر تواصلا بين منجزات ماسينيسا وأعمال عبد المؤمن.

نحن في زمن تحولات المجتمع في الأفكار وفي النظرة إلى هذا الجزء الحميمي من كينونتها، وهو تاريخها، وعلى غرار المفكرين الذين أشرنا إليهم ينبغي علينا أن نبذل قصارى الجهد لتجاوز الرصيد المفاهيمي القديم الذي ورثناه، ولن تكون الاعتبارات المترتبة

عن ذلك غاية، ولن تكون مذهبا معتمدا، لأن ذلك من شأنه أن ينتهك حرمة فترة تاريخية في تحوّل نشط في حال جعل تلك الفترة موقوفة على أفكار نهائية، فالواجب يفرض احترام الواقع وتتبعه في حركته المتموّجة، لان الحياة لا تعرف السكينة إلا في حال السرعة في الإبحار إمّا إذا علت الأمواج فلا بدّ من درء الخطر باللجوء إلى صخور البحر الكاسرة للأمواج (écueils).

لقد تحدى الشعب صراعات مريرة، خرجت منها الجزائر(1962) ثابتة واقفة على أسس متينة - رغم المواجهات بين الأجنحة- محاطة بإجماع الشرائح الشعبية العريضة، حيث كانت الصدارة لفكرة أن يجد البلد قبل كل شيء طريقه للسير إلى الأمام، فقد كانت الدولة حديثة العهد جدّا سنة 1962, وكان الانشغال الأساسي في نظر الجميع هو أيُّ اختيار يُتّخذ لضمان تنمية البلد ومن ذلك الاختيار سيأتي الباقي : تحسين الظروف المادّية والمعنوية للمواطن وإقامة البنية الأساسية وتنمية الإنتاج وكان تجنيد الأفراد والوسائل مسألة إرادة وحسن تدبّر من جهة وقروض مالية وتخطيط من جهة ثانية، وكانت الاشتراكية مذهبا يعمّ العالم تحت أشكال متنوعة ومتعدّدة ولكن مهما تعددت أشكالها فإنها تلتقي في نقطة مشتركة وهي التوسيع المنهجي للملكية العمومية أي أنّ الاشتراكية أقيمت على مبدأ مثالي كطريق وحيدة نحو الخلاص دون تحديد أيّ المرتكزات الوطنية ينبغي أن تستند عليها.

لقد كرّست العديد من المواثيق (ميثاق طرابلس، ميثاق الجزائر) والبيانات والمؤتمرات السياسية هذا الاختيار، وعلى الخصوص الرأي السائد الذي كان يلقى القبول من الجميع وهو رأي متجذّر بعمق في فكر القادة والمواطنين وهو أنّ الاشتراكية هي شيء بسيط وواضح، وبالتأكيد وإزاء هذا كلّه كان هناك تساؤل عن الثقافة ومضمونها وعن اللغات وتأثيرها كأداة ثقافة وعمل وكذا عن تنوّع الحساسيات ومستويات التحضّر والتكوين حسب مناطق البلاد والطبقات الشعبية، لكن القادة والمسؤولين والشباب والمناضلين والمواطنين والنقابيين وكلّ أولئك المنخرطين في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية كانوا يظنون أنّ كلّ شيء يعتمد على

تطبيق وتعميق الاشتراكية التي تقدّم الحلول ''العادلة'' لكل المشاكل والتناقضات، لأنها تسمح بإقرار علاقات قائمة على النفع العامّ معدّة كمعطى واضح في أعين الجميع. فقد كانت الاشتراكية في ذاتها مشروعا أخذناه كمنظومة أقيمت لتكون وسيلة لحل كل المعضلات.

كان الأمل في مستقبل اشتراكي يشكل ذهنية الجميع وهو أمل ينتظره الجميع بثقة تامّة، وبتفهّم إزاء مخاطر من كل نوع، تنجرّ عن تمذهب يفسر كل شيء من حيث الفكرة التي لدينا عن الأمة وتطورها.

لا تطرح الأمة في ذاتها أي إشكال، فهي معطاة لا لبس فيها، ومادّة أولية للاستعمال و''الحشد'' والتحويل حسب الحاجة، طيّعة وجاهزة لكلّ المهامّ التي تنتظرها، مدفوعة بإرادة جماعية حيث القوى والميول الفردية تتسابق نحو ذات الهدف بفضل التلاحم الذي تمثله الأمّة بذات الروح الوحدوية التي تجسدها، شبيهة بمجموعة القوى التي تتحد فيما بينها كأطراف في جسم صلب متماسك، هذا الأسلوب في رؤية الأشياء لم يكن راسخا على نحو صريح بهذا المعنى ولكن كان واردا ضمنيا في الخطاب السياسي والإداري حيث كان يشكّل قاعدته الخلفية.

لقد كانت هناك بعض العناصر المعادية للمصلحة العامّة وهي بتلك الصفة شبيهة بـ ''ثورة مضادّة'' مندسّة داخل العناصر المشكّلة للأمّة بفعل بعض الاختلافات الثقافية والسياسية أو السلوكية ففي سنة 1968 باعتباري موظفا ساميا وعضوا في اللجنة الوطنية للشبيبة، في اجتماع حاشد تناول وزير القطاع الكلمة مشيرا إلى أنّه في إحدى مناطق البلاد هناك سلوكيات مؤسفة جدا متعلقة بالشباب اليافع على وجه الخصوص وهي سلوكيات يراد لها أن تكون عادية. وأنّه من غير المقبول أن نرى في ماضينا شيئا آخر غير الأعمال الجليلة التي قادت الأمة الجزائرية لأن تكون في طليعة الأمم الأفرو أسيوية من خلال كفاحها المظفر وتجربتها الرائدة واختياراتها التي تمثل أحسن الاختيارات الوحيدة الممكنة، أمّا الشعب باعتباره كتلة من الأفراد فإنّه في حياته اليومية يتمتع حسب ما جاء في الخطاب بكل فضائل

الطهر والسخاء والتعاون والتفاني في خدمة الصالح العام... .

أعطى الكتّاب لمثل هذه المفاهيم مصطلح الشعبوية الذي يعني إثارة الشعب بعبارات تمجيد وامتداح فكرة ما على أنها الحقيقة الأساسية التي يتعيّن السير على ضوئها على جميع الأصعدة الاقتصادية الاجتماعية السياسية الثقافية الدينية.

كانت الشعبوية بالنسبة له (لذلك الوزير) هي إقامة قاعدة حقيقية ملموسة لا يمكن إنكارها وهي أن الشعب باعتباره جماعة إنسانية موحدة بروابط التضامن المادّي (على أساس الإقليم الجغرافي الذي تقيم عليه) المعنوي والبشري (على أساس التقاليد والشعور المشترك، روابط العاطفة والمصاهرة والقرابة واللغة والدين)، ولكن الشعبوية لا تأخذ في الحسبان إلا المستوى الأول المكوّن للمجتمع، ولا ترى فيه إلا مادّة ولا ترى الحياة في ذاتها التي تبث الروح في تلك المادّة: الماضي الذي صنعته والحاضر الذي تصنعه على الدوام والمستقبل الذي ينتظرها وفي كلمة واحدة : الحركة المتواصلة المستمرة دون توقف التي تطوّره وتحوّله؛ وعلى الخصوص وعيه بذاته وقدرته على الفعل وردّ الفعل، وإرادته.

ليس المجتمع أو الأمّة إلا مجموعة أفراد يعيشون في جماعة، إنّه منظمة حية في تطوّر مستمر تبعا للمنافع ولمجريات الأحداث التي عاشها قديما وحديثا وحسب الزمان والمكان ضمن طبقات أو طوائف أو مجموعات قبلية، قروية أو حضرية أو دينية؛ في فئات مهنية أو ضمن شرائح اجتماعية إثنية أو لغوية ؛ أو بنى اجتماعية خاصة متعارضة فيما بينها تتحالف وتنتشر أو تنكفئ على ذاتها، تتشارك ولكن لكل منها حياتها ونشاطها الخاصّ.

لم تختف الشعبوية - التي عرفت عصرها الذهبي- بعد، لأنّ الهيئات لا تزول دفعة واحدة قبل أن تأتي التي تحل محلها، ولكنها تراجعت في الأذهان والممارسات السياسية، وطيلة سنوات الستينيات وبعضا من السنوات التي تلتها إلى اليوم الذي نضجت فيه الأحداث تحت الرماد الحي، كانت الشعبوية مسيطرة وطبعت الدراسات والبحوث التي ركزنا هنا على شيء من استمرارها وتوجّهها الخاصّ الذي يبدو انه يحظى بالإجماع وتبعا لذلك

لا تـزال الشـعبـويـة تسـعـى لـلـتـجـديـد بالبحث عن طرق أخرى.

تمّ تحرير " مقدّمة في تاريخ الجزائر " على امتداد سنوات 60 -68 بالتوازي مع التحضير لكتابة تاريخ الجزائر في سفر (صـممت مخطـطـه بـالـتـفـصـيـل) مسترشـدا بـالمنـاخ الأيـديـولـوجـي - السائد في تلك الفترة - الذي جعلني أستلهم من الأمة - في وحدتها النظرية - التوجه الذي يتعين علي الأخذ به.

إلى هـذا، كـنت اقـتـفي اثر الـوقـائـع الـتـاريـخـيـة الـتـي تـبـيّـن الـفـتـوحـات واخـتـلاط الشـعـوب المتـوسـطـيـة عـلـى الأرض الأفريقية ودرجة الانصـهار بين هذه الشعوب ونصيب اللغة في ذلك وكذا الأديان والتقنيات من كل نوع، وحصـة الإبداع الـعـائـد لسـكـان البلاد الأقدمين، وصولا إلى انقسام البلد في الـنـهـايـة بـعـد الـقـرن XVII إلى جـزائـر الـدولـة والمدينـة وجـزائـر ريفية، الأكثر عددا المتطورة بطريقة أقل ما يقال عنها مستقلّة، وكان يبدو لي أنّ احتضان كل هذه الحقائق والنظر إليها بعين واحدة لـلـعـثـور فـيـهـا عـلـى مـبـدأ الـوحـدة أمـرا صـعـبـا، ـ أو لعلّه سابق لأوانه وهي في كل الأحوال يفوق قدراتي نظرا لما توفّر لي من وقت وهو غير كافٍ، وحينئذ تبيّن لي أنّ من الأجدى أن أبدأ في عمل تحضيري بتقديم مختلف المفاهيم التي استخلصـناها من تاريخنا عبر العصـور (وهـو الموضـوع الـرئـيسـي في هـذا "التمهيد") .

منذئذ، ظهرت معطيات جديدة، فقد قدّمت المفاهيم الشعبوية الدليل على ضـعـفـهـا أمـام الحقـائـق فـالاشـتـراكـيـة لا تحمل دائما ما ينتظر منها من حلول تحت غطاء التضامن والوحدة الوطنية ولا يمكننا الاستمرار في إخفاء التمايز الطبقي وصعود الحساسيات الثقافية والتفاوت في التنمية بين جهات البلاد، والـروح الجهـويـة الـتـي تسـودهـا: قـرى، فلاحون ومربو حيوانات في السهول ورحّـل، مـدن ذات مـلـمـح خـاصّ ... والنشاط الإداري والسياسي (إصلاح زراعـي، ثـورة صـنـاعـيـة، ثـقـافـيـة) تصـطـدم بـالمـاغـمـا الاجـتـمـاعـيـة وبـنـى أصـبـحـت أكـثـر حـيـويـة في مـقـاومـتـهـا، إسلام جديد يتشكّل ويمتدّ ليكون بديلا للإسلام الوطني والشعبي الذي ظل في كـل المنـاحـي يسـهـم في بـقـاء واسـتـمـرار الـتـوازن والانسـجـام في مجتـمـعـنـا. وبـاخـتـصـار ظـهـرت أجـيـال جديدة تتطلع إلى المستقبل وإلى الحداثة

وبهذه الأجيال وفي زخم هوياتي هناك شرائح المجتمع القديمة المتمسكة هي الأخرى بالحداثة تحمل وجدانا حيويا معتزا بالماضي الوطني.

وبالتوازي مع كل هذا هناك الأوضاع الاجتماعية التي تشهد تحوّلا، فجزائر غداة الاستقلال التي كانت متواضعة على الصعيد الاجتماعي. ومقابل القادة الجدد الذين احتفظوا بنمط الحياة الشعبية ظهر مجتمع مختلف إلى حدّ ما فقد كانت السيطرة الكولونيالية قد سوّت ولو جزئيا أوضاع المجتمع (الأهلي) ولم تكن الفروق التي أحدثها الاحتلال لتصل إلى حدّ تجذير الانقسام (الطبقي).

وشيئا فشيئا مع ازدهار القطاع العامّ وكذا القطاع الخاص والمؤسسات بعددها المتزايد كل ذلك سمح بظهور طبقات جديدة وتجمعات ومصاهرات تبعا للمصالح وتآزر مدعوم بالروابط الثقافية أو بصلات أخرى.

وبعد عشرين سنة أصبحت جزائر 1980 شيئا آخر غير جزائر 1962 تبدو مهزوزة في واقعها الجديد الذي آلت إليه ولكن الوحدة راسخة في عمقها.

لقد خضعت لإعادة التشكّل ليس لأن التغيير مسّ البنى القاعدية للمجتمع عموما ولا حتى لان التغيير كان عميقا جدّا، لأنه ينبغي دائما الذهاب بسرعة إلى التاريخ وأخذ المقاربات من الظواهر المماثلة لأكثر القضايا أهمية على أنّ الذي يبدو لنا بالغ الأهمية ولا بد من الإشارة إليه هو أنّ :

التغيير حدث والانطلاق فيه بدأ ومسار التحوّل شرع فيه وكان ذلك التحولّ المتّئد قد أحدث ثورة في الأذهان وفي حقل الأفكار، في الآداب وفي الفنون، أكثر مما هو في حقائق المجتمع والاقتصاد والمؤسسات. ذلك هو المشهد الجديد والمناخ المحيط به.

كانت جهود النضال الوطني منصبّة على إقرار وجود أمّة على قاعدة سياسية راسخة؛ وكان للإيديولوجيا المنبثقة عن الاستقلال رغم نقائصها وشعبويتها إلى حدّ ما، داعمة لذلك النضال، لكنه لكي تتقدّم الأمّة في أيامنا هذه فإنّ الجزائر بحاجة إلى أن تخرج من الخطاب الأيديولوجي منتهي الصلاحية، الذي يعيق البلد عن التقدم، فقد عمل النضج الفكري عمله والشعب واعٍ بذاته ويمتلك قواه الذاتية،

والذي ليس له معنى إلى حدّ الآن هو تهميش الحرية والديمقراطية فليكن ذلك ماضٍ ينبغي تناسيه فلا حاجة إليه مستقبلًا، ولا بد من العودة إلى قوة التماسك الوطني على أساس إعادة الاعتبار للعنصر الامازيغي الذي هو العنصر الأساسي في تكوين الأمة الجزائرية، وإحلال الحضارة العربية مكانتها في منظومة التكوين ثمّ الانفتاح على الحداثة في مجاليها الثقافي والتكنولوجي، والنظر في مسألة الدين في ارتباطاته بجميع النشاطات الاجتماعية، وعلى الخصوص ما نراه من انقسام الإسلام بين صيغته الحديثة التي يراد لها الهيمنة والسيطرة التامّة وشكله التقليدي والوطني الذي عرف كيف يتكيف مع الحاجيات الحقيقية لمجتمعنا؛ هذه هي مواضيع الساعة التي يدور حولها نقاش أكثر إثارة وحدّة.

كذلك لقد ترتبت عن الأحداث (الكفاح السياسي قبل 1954, حرب التحرير وانتصاب سلطة جديدة بعد 1962) التي قادت البلاد إلى انتزاع استقلالها السياسي مشاكل من نوع جديد تطلّب حلّها اللجوء إلى التاريخ الذي أصبح على نحو متزايد باعتباره معرفة وعلما بالبلد المرجع الأساسي، لأنه هو الحقيقة التي لا مراء فيها، والتي لن يفلت منها أحد، فهو الحكم بين الأيديولوجيات وهو "الفرقان" (××) معيار الفحص الذي يبين الحقيقة من عدمها.

ليس هناك استمرارية بل العكس هناك قطيعة بين مفهوم الأمّة في أيديولوجيا الكفاح الوطني التي استمرّت بعد 1962 والمفهوم الذي أخذ في الظهور بشكل مطّرد في جزائر اليوم.

ظلّ أحد المفهومين مجمّدا ويبدو أنّه استنفد طاقته، في حين ارتبط الآخر الذي هو تعبير عن رغبة شعبية عميقة احتمالا عن غير قصد بتطور تاريخي كوني ذي طابع عالمي منبثق عن الحرب العالمية الأولى (1914-1918) وهو الذي دفع الشعوب نحو إبراز شخصيتها المشروطة بمطلب الحرية.

لقد جدّد التطوّر الذي عرفته الجزائر خلال السنوات الأخيرة إذن الدراسات التاريخية وليس لهذا النص الذي نصدّر به هذه الطبعة الجديدة لكتابنا "تمهيد" من هدف سوى تبيان ما هو جديد في الموقف إزاء الماضي الوطني.

انتهى إذن تصور الأمة المطابق لذاتها وأنّ السيطرة الاستعمارية وحدها هي التي طمست وجودها، كما كان دائما في الأذهان.

انتهت فكرة الوحدة التي تحجب التنوع وتبعا لذلك تحجب الثراء الحقيقي الذي عرفته الجزائر في مسارها عبر التطور حينا والتراجع أحيانا، وعبر الاختلاف والتوافق والتأثيرات المتبادلة التي تعترضها وكذا تعايش شعوب مختلفة عبر الماضي.

لا تنغلق الأمّة البتّة في مفهوم نظري مجرّد لجماعة (Communauté) بشرية مستقرّة لا شيء يشغلها سوى الهمّ الاقتصادي والدفاع عن مصالحها واستقلالها، فالأمّة في الوقت الراهن، قضيتها مع ذاتها وروحها هي التي تتفاعل وهنا يكمن المشكل الأساسي وهو الذي يقود الباقي، إنّه جوهر الأمة ذاته الذي يثير الإشكالات لأنّ ما دون الأمّة (في المنظومة المجتمعية) يوجد المجتمع الذي هو المجال الذي ينتظم فيه الأفراد في حياتهم، ودون حجر الأساس هذا لن تكون الأمة شيئا يذكر كما أنّها ستكون منقوصة الكينونة في غياب الدولة التي تعبّر عن إرادتها.

تواجه الأمة خصمين هما الاستعمار الذي ألغاها، ونقيضه الذي استبدل هوية بأخرى هي هويته الخاصّة.

ليست الحياة التي نحياها في بلادنا ذات خصوصية في خطوطها العريضة، والأمم المستقلة حديثا في عمومها بعد الحراك الكبير الذي واجهت به الاستعمار، تكتشف يوما عن يوم أنه لا مفرّ من العودة إلى ذاتها تحت طائلة العيش على أمجاد أسطورية أو واقع مفترض، هذه الأمم لا تزال تواجهها مشاكل اقتصادية لأنها دائمة ولها النصيب الأكبر في الحياة اليومية للأفراد والدول أمّا المشاكل الثقافية وتبعاتها السياسية فهي جديدة، وتميّز المرحلة التي تلت السنوات الأولى أو عقود التخطيط للاستقلال وانتصاب المؤسسات القاعدية.

وإلى أيامنا هذه، يعود العديد من الكتاب (أفارقة وأسيويون وأوربيون) إلى الجذور؛ إلى الزنجانية (Négritude) والأفريقانية، والمزغنة (Berbérité) والعربنة (Arabité) والفرعونية، إلى العمق المتوسطي القديم، ويميلون إلى البحث على نحو مطرد، ودون التوصل إلى النتائج المرجوة، لعلهم يعثرون على مسارات

متميّزة في تكوين الأمم في العالم الأفريقي والأسيوي وتحديد الدور الذي لعبته القبائل الكبيرة في تلك المسارات التي لم يستخلص منها شيء بخصوص تحديد الأشكال الخصوصية التي قد يكون الإقطاع اصطبغ بها في هذه المناطق من العالم؛ وفي الأخير تراهم ينظرون نظرة جديدة إلى التأثير العميق والحاسم أحيانا الممارس منذ القرن XVI وعلى الخصوص خلال القرون XVIII و XIX وXX والمعزو إلى توسع الحضارة الصناعية التي انطلقت من أوربا.

خسرت نظرية الثبات والدوام ذات الطابع الوطني أرضيتها (ضمنيا أو بوضوح أقلّ أو أكثر) وقد أعطتنا الأبحاث والدراسات الشاملة - وهي على قلتها في الجزائر كثيرة خارجها - النتائج بإظهار وجه الهويات الوطنية الذي يختلف عن الوجه الذي أعارته إياها الأدلجة السطحية، أو قدسية تقاليد متصلّبة لم تخضع أبدا لرؤية علمية ولا نعرف أو بالأحرى لا نريد أن نعرف جزاءها منتهي الصلاحية من جزئها الذي يحتفظ بحيويته.

لهذا نرى أنّ التجديد في البعد العالمي يهمّ البلدان الأفريقية أكثر من نظيرتها الأسيوية، وأقل من بلدان أمريكا اللاتينية وأستراليا حيث الشعوب القديمة أو السكان الأصليين (Aborigènes) كما يقال انقرضت تحت طائلة الفتوحات الأوربية في حين خضع السكان الزنوج للعبودية واعتنقوا النمط الأوربي في الحياة.

في مجموع هذه البلدان وبدرجات متميزة لكل منها ظهر تفكير علمي جديد مدعوم من طرف ذهنية جديدة يتمثل في نزعة قوية وتيار موجّه في ذات الوقت نحو شيئين يجتمعان في الممارسة ويفترقان في الفكر أي نحو وعي بالماضي وبالهوية يزداد حدّة من جهة ونحو نقد ذلك الماضي في شكله الخام الذي لم يعد يحظى بالرضا من جهة أخرى.

من غير الممكن في دراسة خاصة التجرّد من هذا السياق الكوني الذي يمثل إضافة نستنير بها لتأكيد ما اكتشفنا في بلادنا.

لقد سيطر المؤرخون والمنظرون الأوربيون على علم تاريخ الشعوب والحضارات واستخرجوا منها مبادئ قيم كونية لا جدال فيها، لا أحد يمكنه تجاهلها إذا كان يرغب في المزيد من المعرفة ولكن هذه المبادئ لم تأخذ في الحسبان

إلا جزئيا تجارب المجتمعات القديمة المتخلفة والتي ظلت لفترات طويلة تحت السيطرة ولا ريب أن جهود الباحثين من تلك البلدان المندمجين أكثر مع محيطهم ستأتي بكل تأكيد بمساهمة معرفية معتبرة من حيث الكمّ للتاريخ الكوني ولكن ستكون نوعية في الجانب المتعلق بترقية المفاهيم الجديدة وتحديث نمط التطور الذي لم تعرفه أوربا أو في بعض الحالات نمط ضاعت ذكراه، ولم يعد له تأثير على التصورات التاريخية العامّة.

هذا مثال متميّز يوضّح ما كنا نشير إليه وهو إمانويل لوروا - لادوري (Emmanuel Leroy-Ladurie) عالم اجتماع ومؤرخ معاصر ذائع الصيت، ففي كتابه : ''مجال المؤرّخ، باريس 1971'' (×××) استخرج مبدأ يقول فيه أنّ الحضارة الريفية في العالم الأوربي كانت في الأساس حضارة مجتمعات خاضعة، هكذا قدّم فكرة مطلقة لا أرضية لها ودون تمييز، فهذا المبدأ قد يعتبر نهائيا وطبّق في الأساس على جميع الحضارات القروية والحال أنّه في مجموع ما يسمّى العالم الغربي شكّل تنامي مركزية السلطة ظاهرة مسيطرة منذ حوالي سنة 1000 بصفة شبه كلّية وهو ما جعل الاستقلال الذاتي للجماعات الريفية في تراجع مستمر، لكن الأمر اختلف في مسار مناطق جنوب المتوسط، حيث نرى في الدراسات التي نعدّها عن الحضارة القروية والريفية أنّ الجماعات الريفية وعلى الخصوص في الجزائر والمغرب وبصفة أقل في تونس قد لعبت دورا تاريخيا من الطراز الأول في الفترة ما بين القرنين XVI و XIX.

ظل المخزون المفاهيمي وترسانة النظريات المختلفة تغتني يوما بعد يوم، في الظروف الحالية للبحث العلمي من خلال إسهامات المؤرخين الأوربيين قدامى ومحدثين من جهة ومن جهة أخرى من خلال إسهامات الباحثين الأفارقة والأسيويين الذين يتزايد عددهم في حقل البحوث التاريخية، وغير بعيد عنا نجد مفاهيم الوطنية المتقدّمة والمنشورة على امتداد فترة من التطوّر الذي عرفته البلاد ما بين 1920 إلى 1936 (تبعا لنقطة الانطلاق التي اختيرت لتاريخ الوطنية) وكانت المادة التي وضعت في خدمة الباحثين والسياسيين جميعا في أي مستوى كان من أولئك الذين يرغبون في المعرفة أكثر من أي وقت مضى، والكل سعيد بنمو

المعارف والدراسات التاريخية.

أصبح المجتمع ينتظر من كل الذين تولوا بعض المسؤوليات في هذا الميدان، ليس فقط تراكم المعارف بل تقديم ملخص عنها يكون مفتاحا لحل إشكال سياسي، هو التعريف بمجتمعنا ذاته.

موضوع الساعة خطير وحاسم وهو الأكثر أهمية، وإذا كنا في هذا الفصل نعدّ لنظرة جديدة عن الجزائر وعن مكوّناتها وعن وحدتها مستخلصة من مصادر تاريخها البعيد والقريب فإنّ هذه الفكرة تبدو مختصرة كثيرا.

يمكن القول بأنّه لم يكن من الصعب جعل الفكرة طويلة باستعراض النظريات العامّة أو الخاصّة الواردة في كتب ودوريات يتردد صداها في الصحافة واسعة الانتشار، وتزيينها بعديد النصوص والأقوال المأثورة وستكون النتيجة أنّ هذا النصّ يفقد شكله ومضمونه، فليس هناك خطر أكبر أحيانا من المعرفة الواسعة وخاصة الكتب الملفقة.

التاريخ عندنا على نحو متزايد هو عمل نضالي حيث ينبغي تقديم المعطيات وتحديد موقع الإشكالات واتخاذ موقف جريء.

أعود إلى ما كنت قد أشرت إليه في الصفحات الأولى وهو أنّ التاريخ ليس حياديا في الفترة التي نحياها وهو مثير للجدل بل ومحل انقسام ومن هنا تأتي ضرورة أن يكون واضحا، ومختصرا نسبيا، وهو ما حرصت على الأخذ به، ولدي اقتناع بأن ذلك أجدى لاستجلاء إشكالاتنا الثقافية في شأن الشخصية والهوية، ذلك أنّ نشر كتاب في جزء واحد يضمّ التاريخ الشامل للجزائر مدعوما بنصوص مختارة بعناية وبخلاصة في آخر كل فصل (عمل عصامي يحظى بمزايا بيداغوجية) أفضل من عمل ضخم من عدّة أجزاء.

الذين ينتظرون إنجاز العمل مستعجلون ولهم الحق في ذلك، وعليه تمّ اختصار المسائل وحصرها وتبسيطها ولكن ينبغي اتخاذ القرار والانتقال إلى الفعل على ضوء العلوم التاريخية، مع الأخذ في الاعتبار التيارات التي جعلت الجزائر الحديثة جزائر جديدة تطرق بابنا.

ينبغي أن تكون هناك وحدة، لكن الوحدة يصنعها الأشخاص، إنها عمل اصطباري، مع أنّ مقتضيات الظروف تعلّق الأمل على نتيجة فورية.

الوحدة الوطنية لا تكون بمرسوم، ولا تحدد باختيار أحادي الجانب، يقول آراغون (Aragon): لا نقيم مذهبا علميا أو سياسيا أو نلغيه كما لو أننا نبني أو نزيل مقرّ وزارة.

إن الوحدة الوطنية كلية كالإنسان: عميق في جذوره، شخصي في مظهره، معقّد في تركيبته النفسية والاجتماعية والتاريخية، إنّنا لا نصل إلى توحيد الأشخاص فيما بينهم وإلى تكوين جماعة (Collectivité) متآلفة في تفكيرها منسجمة في إرادتها إلا عبر مسير خطوات كبيرة إلى الأمام وعبر امتلاك مواقف، ويكمن ذلك أساسا في الالتحام بحركة المجتمع الذي - في كل مرحلة من وجوده التاريخي وحتى في الحاضر - يعبّر بطريقته عن كيف يكون وعن إرادته في أن يكون.

أنْ تصنع الاستمرارية في الانقطاع الجذري لأي مجتمع إنساني: تلك هي المهمّة وذلك هو الشرط؛ وهو شرط لا غني عنه (sine qua non). فلا وجود لنظام يدوم إذا عارض الإرادة الشعبية وهذا يذكّر بما كان كورتيس(××××) أراغون (إسبانيا) قد فرضه على ملوكها القدامى خلال تتويجهم وهو العمل بالعبارة الشهيرة: وجوب احترام حقوق الشعب وإلا فلا (sino non).

الفصل بين الاقتصاد والثقافة والهوية هو فصل اصطناعي وغير مشروع فالقوى المنتجة لن تزدهر إلا في جو حرية المبادرة وإمكانية العمل والانتظام بحرية؛ وإن الحياة الحقيقية الحيوية والحماس هما اللذان يصنعان ويدعمان العمل المنتج وهما ذاتهما اللذان يدفعان الفرد إلى تحقيق ذاته في كلّ أبعاد شخصيته. فالعمل المؤدّى لمجرد العيش ما هو إلا عقوبة ومعاناة إذا لم يتكامل مع التوازن الكلي للفرد الذي يقوم به بحرية وبحبّ واستطعام للذّة الحياة، وهذا في حدّ ذاته مجال الثقافة، فالإنسان باعتباره منتجا لا يسعى إلا لاستعمال قدراته المادية والفكرية وعندما ينهي مهمته تنتهي، في حين أنّ وجود الإنسان بالمعنى الواسع للعبارة، يتطلب منه كلّ روحه كما شكّلتها الحتمية الاجتماعية التاريخية؛ شيء من التعبير المطلق في جوهره. أن يقع تجاهل هذا الأمر أو ألا يرى في الإنسان إلا آلة إنتاج أو أن يظنّ بأنّ تلبية حاجياته المادّية كافٍ أو أن توضع الثقافة في رتبة ثانوية أو أن يغضّ الطرف عن كون الإنسان يمثل وحدة قائمة الذات، ذرّة اجتماعية وله حياته الخاصّة المستقلّة،

هذا سيقود أنظمة الحكومة وتسيير الجماعات إلى أسوأ التجاوزات، وإلى أخطاء فادحة : إلى الشمولية التي هي إخضاع الإنسان لإجراءات التدخّل في المادّة الساكنة التي يتولّد منها مذهب "الإنسان الجديد" (كما لو أننا نستطيع خلق إنسان جديد في كلّ مرّة كلما قررنا كمن يصنع مكواة جديدة).

إن هذه الاعتبارات عن ارتباط الاقتصاد بالثقافة لمحاربة الخطأ الذي تنطوي عليه الكثير من الذهنيات ولاسيما في صفوف المسؤولين الذين يرون أنّه من الممكن تعزيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية بمعزل عن الأوضاع الثقافية الأصيلة التي يتفاعل فيها نشاط الإنسان. كما أنّه ينبغي أن يتوقف الانقسام ما بين مختلف التيارات التي تمثل الأمة تحت ألوان ومظاهر مختلفة ومتعارضة تماما مثلما يجب وضع حدّ لفصل الاقتصادي عن الثقافي، وهو الفصل الذي أضحى لدى البعض مذهبا اقتصاديا (Economisme) والأخطر هو أنّ هذا المذهب يجسد فكرة أنّ اقتصاد مجتمع يخضع لقوانين ومسارات تقنية في الأساس منفصلة عن التطور الاجتماعي العامّ.

لقد تمكّن مذهب المادّية التاريخية لماركس وتلاميذه الأولين من جعل علاقات الإنتاج قاعدة جامعة لأفكار وفلسفات وفن وثقافة عموما، وأفكار الماركسية في هذا الجانب قديمة، وإذا كانت عبقرية نظرية ماركس وهذا ما لا ينبغي تناسيه، قد عالجت في اتساعها وعمقها مشاكل المجتمع الصناعي للقرن XIX فقد فعلت ذلك لمجتمع كانت مشاكله الثقافية واللغوية والجهوية ومشاكل الهوية والوحدة الوطنية قد حلّت خلال الفترة ما قبل الثورة الصناعية وذلك بتكوين وإنشاء الأمم (×××××) في سياق الثورات الديمقراطية ما بين نهاية القرن XVIII وبداية القرن XX.

تعود بي الذاكرة إلى سنوات الشباب حيث كنت مندمجا في مشاكل مجتمعي ليس بالتمني ولا لميل خاص بي، ولكن وببساطة في السنين التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية كان الأمر عامّا لدى كلّ الشبيبة الجزائرية في تلك الفترة، فمولود معمري في "الهضبة المنسية" وهي الرواية التي شرع فيها منذ 1939 وأنهاها بعد الحرب بأسلوبه الخاصّ الولوع بالحد من سرد أوضاع شخوصه في شأن عواطفهم الداخلية، قد أعطى زخما جديدا لتلك

الشبيبة القلقة التي كانت تبحث عن انطلاقة جديدة.

جاءت السياسة في أعقاب ذلك، وهي حمّى سياسية تقاسمناها جميعا، ثمّ جاءت حرب التحرير ذلك الحدث المفعم بالحماس والرجاء، فما كان لأحد خلال تلك السنوات العصيبة 40 -50 و 50- 60 أن يشعر بأنه في ظروفه مفصول عن المصير الاجتماعي.

قوة الدفع القادمة من تلك السنين لم تذهب هباء، على الأقل بين أبناء الجيل الذي عايش النظامين القديم والجديد، لكنه -وهذا عادٍ- اخترقت جدار الجيل الجديد الذي لم يعش حرب التحرير الوطني ولكنه لم يتعلم من الكتاب ومن الصحافة ومن المدرسة ما ذا يربط بين الفترتين اللتين تفصلهما ثورة 1954-1962.

ذلكم هو ما يفسر ما نلاحظه في الوقت الراهن، وأوله نوع من القطيعة أو في جميع الحالات اختلافات كبيرة بين ما يفكر فيه الجيل السابق وما يفكّر فيه الشباب. ثانيه هو المنحى الخاص الذي اتخذته ذهنيات هؤلاء الشباب (الذين يشكلون الأغلبية الكبيرة من مجموع السكّان) سلوكهم وأفكارهم وتصوراتهم الخاصّة عن الماضي والحاضر والمستقبل وأخيرا الأشكال التي تكتسيها أنشطتهم المطلبية ويبرز من بين الجيل السابق والجيل الذي قبله موقفان :

1- موقف هؤلاء الذين يعتقدون أنّ المهمّة انتهت ولم يبق سوى الاحتفاظ بالاستقلال الذي تحقّق بثمن غالٍ.

2- موقف أولئك الذين بقيت لديهم قناعة أنّ بناء الوطن لم يكتمل وأنّه لا بدّ من الاستمرار الدائم تبعا لما يجدّ من معطيات أكثر ثراء وأشدّ إلحاحا.

فعند الأولين تسيطر فكرة حماية الوطن من سيطرة الشركات الأجنبية على الاقتصاد (وكأنّ هذا الخطر جديد وليس قديما قدم الحياة) وهم ضدّ ما يسمونه الغزو الثقافي(××××××) (كما لو أنّ الأفكار والفلسفات لا تتنقل بين الشعوب منذ نهاية النيوليثي) أمّا عند الآخرين فالفكرة هي إحكام القبضة على الدولة والعالم الخارجي وذلك بترسيخ قدم الدولة وتقويتها لتكون قادرة بذاتها على دمج الرافد الخارجي وجعْله وطنيا.

كل هذه الفوارق بين الأجيال والاختلاف في التكوين المتلقَّى أنتج

توجهات مختلفة وتناقضات تضاف تبعا لذلك إلى الحالات التي نعيشها من المشاكل المعقّدة. وهو ما أشرت إليه أعلاه بصيغة أخرى.

كانت الأجيال السابقة مقيّدة بالرقابة، مختنقة بفترة حكم لا تقاسمه ذات الأيديولوجيات المعلّبة والمسيطرة فلم تستطع القيام بإنتاج فكري لترقية المعارف والنتيجة هي أنّ علوم المجتمع: التاريخ وعلم الاجتماع والآداب والفلسفة وحتى الجغرافيا بقيت متخلفة، هذا من جهة ومن جهة أخرى تطوّر المجتمع والأحداث التي تتراكم، والمطالب والطموحات كانت ترتفع كالإعصار تلحّ بشكل متزايد على ضرورة توفّر البحوث العلمية لجعل العديد من الإشكاليات المطروحة مفهومة. ومع غياب الأدوات يزداد الإلحاح على ضرورة تقديم شيء في هذا المجال، لكن الطلب كان يزداد والعرض هزيل وفي تلك الأثناء نضج المجتمع، ولئن كنا نرى أنه نضج إلاّ أنّ المؤسسات كانت متأخرة في أداء الوظائف المرجوة منها ولم يقم الاقتصاد بتجنيد مجموع القوى التي تحتاج إليها التنمية ولم يُحَلّ الإشكال الثقافي مع أنّه يهمّ كلّ التوازن الاجتماعي والجانب المعنوي للفرد، لأن الثقافة بالنسبة للفرد هي في النهاية الحق الذي يتيح للفرد تقرير مصيره بنفسه.

كلّ هذه الظروف هي التي ميزت المرحلة التي قطعتها البلاد حيث لم تكن الصعوبة في بناء تفكير على قواعد يفترض أنها مكتسبة وحسب بل إنّ إعادة البناء والتجديد في الأفكار في ذلك السياق ليس سهلا، فقد كان كل تيار فكري يسعى لجعل التاريخ سندا لمذهبه وهذا سيقود إلى التعصب والإقصاء الذي يصبح سيّد الموقف. عندما لا يتخذ(التاريخ) كمرجعية عليا في حقيقته وشموليته وعندما يبقى القانون الأساسي للدولة متحيّزا في تعريفه للأمّة ذاتها ولا يقوم على مبدأ المساواة السياسية والثقافية على قدم المساواة في الدخول إلى شغل الوظائف الاقتصادية والإدارية.

وفي هذا الشأن يبدو أنّ الجدل الذي أثاره التطوّر في الأفكار منذ عدة سنوات - وخاصة منذ نهاية العام 1988- جدل واعد، واعتبر خطاب الرئيس بن جديد حينئذ (أكتوبر 1988)، خطابا تاريخيا.

ينبغي الذهاب بعيدا في شرح حالة يمكن اعتبارها حالة خصوصية في الجزائر، ولكن في العموم وفي بعدها العالمي هي نتاج تحليل معطيات تاريخية لا نقاش فيها، ففي مجتمعات البلدان النامية كان العبور من الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي إلى مستوى الحضارة الحديثة فجأة، وهو ما تمليه الظروف التاريخية والتطور الكوني أحيانا، وكثيرا ما يقارن الوضع بالأمم الأوربية فنأخذ عنها مفاهيم توحيد المجتمع ومركزية سلطة الدولة لكن لا ينبغي نسيان شيئين : الأول هو أنّ الأمم الأوربية (الغربية وحتى بعض الشرقية في بعض الجوانب) تشكلت على مدى سنة إلى عشرة قرون. والثاني هو أنّ تنمية الحضارة المادية والأدبية في تلك الدول كانت ظاهرة تقدّمية (يمكن الرجوع خاصّة إلى غيزو في كتابه : تاريخ الحضارة في فرنسا وفي أوربا) على عكس الأمم الأفريقية والأسيوية حيث كان خط التطوّر ملتويا تخللته فترات ركود طويلة نتج عنها في بلداننا أوضاعا خاصّة بنا، فمن جهة هناك وضع متقدم لأيديولوجيا سياسية أصبحت كونية تقوم في أساسها على مبادئ المساواة والحرية ومن جهة أخرى هناك تخلف اجتماعي ممكن (لا أحد يقول ضروريا) يسهل إقامة منظومات حكم يتم فيها التضييق على الحرية إلى أبعد حد، وفي مثل هذه الظروف تكون إدارة دفة الحكم حتى بالنسبة لمن يحكمون في غاية الصعوبة. فكيف تبرر أمام الرأي العام (الداخلي) وكيف يكون الرد على الاحتجاجات، فمن جهة حققنا كل شيء حسب القوانين المكتوبة ومن جهة أخرى لم نحقق إلا النزر اليسير.

النظام الإقطاعي - سواء النمط الأوربي الذي يقوم على ملكية السيّد (Seigneurie) أم نمط شمال أفريقيا والمشرق الذي يقوم على ملكية الدولة - وهذا يقال لتصميم جدول هذا النظام وتبسيطه ، هذا النظام كان قد حلّ مشكلة اقتسام السلطة والحقوق بين القوي والضعيف، وذلك بالجمع بين الملكية كقاعدة ومصدر سلطة من جهة والعقد كمصدر للحقوق للضعفاء، وفي هذه الحالة يحوز القوي كل شيء بالاتفاق أما الضعيف فيكتسب جزءا من حقوقه كإنسان وكمنتج، وعبر تاريخ الإنسانية الطويل وفي كل جهات العالم كانت المسيرة التطورية للفلاحين والحرفيين ومربي الحيوانات قد نجحت في انتزاع شيء من الحقوق ولكن ببطء( )

وعرفت تأخرا في بعض المجالات، ولكن في جميع الحالات كانت الظاهرة هي ذاتها في جوهرها.

إلى هنا، كانت ميزة المنظومة الإقطاعية على المنظومات الحالية هي حقوق الضعيف وحتى إن كانت مقيّدة فإنها على الأقل وفي جميع الحالات أكيدة ومعروفة وموثّقة كتابيا أو عرفيا، فالمجتمع الإقطاعي يعيش ويطبّق الفصل (في السكن ونمط المعيشة واللباس...) بين الفئات الاجتماعية المكونة له بصورة تجعله يبدو خاليا من المشكلات الثقافية وحتى المشاكل الدينية، في حين أنّ مجتمعاتنا لا يمكنها أن تفلت من التناقض رغم الإعلان بأنها موحّدة ومتساوية مع أنّ التفاوت في الحقوق والواجبات وجد طريقه، والسيطرة قائمة على الدوام، والنزاعات والاحتجاجات تقوم هنا وهناك لتصبح دائمة دون أيّ اتفاق يأتي بالعلاج، لأنّ الاتفاق غير ممكن فهو في مبدئه ذاته لا أثر له في دستور دولة الفكر الواحد.

هذا الحوار في الفلسفة السياسية (لو شئتم) يختصر مختلف حالات المنظومة الاجتماعية في مخططاتها النظرية الأساسية، ولكنه يبيّن بوضوح طبيعة المشكلة المطروحة علينا في المجتمعات الحديثة وعلى الخصوص في المجتمعات المقبلة على أخذ مصيرها بيدها، وهو مصير نراه سهلا ولكنه في الواقع شديد التعقّيد.

من الخطأ بالنسبة لمختلف العناصر التي تكوّن المجتمع وللتيارات الفكرية التي تعبّر عنه اختصار توافق في شكل ما يمكن تسميته حاليا إجماع تاريخي أو حلّ وسط، لكن مثل هذا الإجماع يفترض وجود أطراف أو منظمات متعاونة تعبر عن كلّ فئة أو تيار إيديولوجي على الأقل، ولا يبدو في الظروف الراهنة أنّ مثل هذا متاح لسبب بسيط وأساسي وتاريخي وهو أنّه منذ 1962 وحتى منذ 1954 عاش الشعب الجزائري في الفردانية (Individualisme) التي جعلته لا يعرف كيف ينظم نفسه ولا حتى كيف يتعامل مع الديمقراطية .

هناك ظروف تاريخية خاصّة امتدّت على ماضٍ طويل من الهيمنة (مع أنّ الشعب عرفً في ذلك الماضي أشكالا من التنظيم) أوصلت الشعب إلى ردّ فعل وطني عنيف - وهي نتيجة منطقية - انبثقت منه مجموعات قيادية (حتى لا أقول طبقات اجتماعية

بالمفهوم الماركسي للكلمة الذي يفترض وجودها على أساس علاقة تبعية في العمل) ونجم عن كل تلك الظروف تبعات منها أنّ الأيديولوجيات ومنظوماتها تتحول في الأذهان إلى نزعة تسلطية إقصائية قصيرة النظر ترفض الإقرار بأنّ المجتمع في الأساس هو كائن معقّد شامل ومتعدّد.

الجزائر في مفترق الطرق فإما أن تنخرط في اللاتسامح والإكراهات التي يزدهر في جوها تيار أوحد يهيمن على باقي التيارات التي تظهر في البلد، أو الاقتناع بأنّه حان الوقت لأن تكون هي ذاتها وكما تشكّلت عبر ما يقارب الثلاثة ألاف سنة من التاريخ، جزائر جزائرية، هذه هي المرحلة التي ينبغي الانخراط فيها، إنها مرحلة التصالح مع الذات.

عرفت الجزائر في مراحل من تاريخها أزمات شبيهة كانت فيها الانقسامات على أساس ديني أو ثقافي بفعل التنافس لانتزاع السلطة أو السيطرة على المجال الفلاحي والتجاري وترتبت عنها أحداث أليمة. وهو ما يمكن تلافيه بفضل الاتحاد والوحدة: الاتحاد بحركية دينامية والوحدة باعتبارها هدفا يتحقق تدريجيا.

انبثقت الجزائر من عالم متوسطي حيث اكتسبت طابعها الخاص وأخذت حضارتها المتميزة شكلها وروحها منذ ألف سنة ق. م. فهي عريقة تفاعلت مع الفينيقيين والإغريق والرومان وهي الشعوب التي أخذت عنها الكثير وإليها قدّمت ثمار جهدها وعبقريتها، لقد أقبل إليها وافدون من شعوب الشرق من سوريين وعرب وفرس الذين حملوا إليها عناصر ثقافية ودين فأعطتهما طابعها الشخصي وحتى تحت نير الاستعمار أدمجت العناصر الأكثر أهمية في الحداثة.

منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا رغم الانقطاعات والتقهقر وحتى في ظلّ بعض الازدواجيات فإنّ انصهار مختلف العناصر الاثنية والثقافية كان يجري ولو ببطء وظلت الاستمرارية قائمة وهو ما جعل الشعب الجزائري يؤمّن وجوده ويقوم بعد كبوة ليواصل بقاءه. وهذه الاستمرارية التي لا نعيرها في كثير من الأحيان الأهمية تكمن في :

1- ديمومة العمق الأمازيغي القديم.

2- ثراؤه من خلال الاتصال بالشعوب المجاورة.

3- العناصر المادّية للحضارة -مجال غير معروف كفاية أو مهمل في كثير من الأحيان - مثل التقنيات الفلاحية والحرفية، والعمارة الحضرية والريفية، استغلال المياه وحماية التربة... الخ وهي العناصر التي تنتقل عبر الأجيال التي تحتفظ بها وتطورها على امتداد العصور.

في شأن الهوية الوطنية، لا يمكن تجاهل هذه المسارات لإعادة اكتشافها وتثبيتها على أسس تاريخية راسخة، وهذا باستخراج ذلك التوافق الذي يوحّد الميول والأطراف إعادة تشكيل الحصيلة دون إغفال شيء أو نسيانه فلا يحقّ لأي كان أن يقوم ببتر شيء من الشخصية الوطنية أو محو جزء من تاريخها.

وأكثر من هذا فإنّ الهوية التي هي شخصية الأمة ليست فقط المرآة حيث الأجيال المتعاقبة - بما فيها جيلنا- ترى ذاتها أو تتعرف على بعضها البعض، تؤسس لثقافة باعتبارها أداة تفعيل لهوية هي الكائن في ذاته فلا هوية بدون ثقافة، ولا ثقافة بدون هوية، فالثقافة هي الموقف إزاء الحياة، والاستعداد لمواجهة المشاكل من كل نوع وإيجاد الحلول لها، أي العمل على تنمية المجتمع أفرادا وجماعات، فهي صانعة الحضارتين: الحضارة المعنوية الفكرية والحضارة المادية، والاثنتان مرتبطتان ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى، والإنسان وهو يواجه الطبيعة التي يستمد منها جوهره في حاجة دائمة إلى العلم لعلاج ما يعترض طريقه من مشاكل وأزمات تطوّر متأصلة في كلّ مجتمع، وهي مشاكل وأزمات لا يمكن إيجاد حلول لها إلاّ باستعدادات مكتسبة ووعي وفكر يواكب التطور على الدوام.

المعارضات السياسية، والأزمات الاقتصادية الاجتماعية والازدواجيات الثقافية والمعارضات الدينية والمطالب النقابية والإضرابات والمظاهرات والأداء الديمقراطي ذاته، كل هذا لا يتطلب من الفرد أو الفريق الذي يواجه هذه الحالات والأوضاع إلا ما نسميه : " روح الثقافة " أي المعرفة والضبط؛ وتبرز أهمية المعرفة في أنّه لا يوجد مجال منفرد معزول في نشاط أحادي الجانب دون تبعات فورية ولاحقة؛ أمّا الضبط فهو في معناه الانضباط الذاتي لتحقيق الفعالية، إذ يكفي للاقتناع أن نرى ما الذي جرى في العصور القديمة وما نراه في الوقت الراهن. وكمثال على ذلك في الأسواق القديمة: الذي يمكن ضمانه للبائع

هو استلامه أثمان البيع وللمشتري هو استلام البضاعة لان أحدهما يمكن أن يفرّ بعد أن يستلم ما أراد. ولكن هناك العادات المعمول بها، وهناك الفائدة التي تأتي بعد أمد بسبب حسن المعاملة، وهناك احترام الممارسات والوعي بالانتماء إلى مجموعة ينبغي الاحتفاظ بكرامتها، وهناك الوفاء للوعود التي يقطعها المرء على نفسه، أي باختصار هناك أخلاق وهذا كله يمثل ثقافة ومصيرا. وهو كله مرتبط بإطار علاقة اقتصادية قائمة على الانضباط.

وفي أيامنا انحرفت المطالب نحو الفوضى والأنشطة نحو العنف وإذا لم تستحضر الأذهان فرديا وجماعيا المعرفة الصحيحة لعلاقات القوة والحدود التي ينبغي أن يلتزم بها الأفراد في إطار الحياة الاجتماعية وإذا لم يقم الفكر المنهجي يحلل الطلبات ليعطيها الشكل والمضمون سيحصل ذات الشيء في ميادين أخرى (سياسية، دينية ويمتدّ ذلك إلى نزاعات المواريث والزواج والعواطف) حيث تبقى الثقافة حاضرة.

قد يكون من السابق لأوانه بالنسبة لمعاصرينا، الإقرار بالتحولات السياسية والثقافية التي هي في طور الاكتمال، والإفصاح عن طبيعتها واتساعها، وهنا يمكن استحضار الوضع في نهاية 1989 حيث بدت الأحداث حينها في تسارع، وأخذت الميول تحتدّ وتقف وجها لوجه، وليس من المستبعد أن تمتدّ المسألة خارج إطار الوطن، وكأنّنا في الطريق لنعيش ثورة جديدة فيما يشبه دوامة اهتزّ لها المجتمع أفرادا وجماعات، ومع أنّ التحولات الاجتماعية الاقتصادية ليست هي القضية إلا أنّ السبب في الوضع الحالي يكمن في مشاكل اللغة والثقافة والديمقراطية وحتى الدين ذاته، وهي مشاكل تمّ التعبير عنها بالإرادة في تولي المسؤوليات الإدارية السياسية الاقتصادية من قبل طبقات اجتماعية جديدة وتبعا لذلك الطعن في النظام القديم الذي وزّع تلك المسؤوليات.

نحن في حاجة أكثر من أي وقت مضى إلى نخبنا الفكرية من أجل نظرة جديدة إلى تاريخنا الوطني الذي هو التراث والمرجعية الأساسية لنكون في مستوى الأحداث والحقائق الأصيلة، التي تنشأ كلّ يوم.

قياسا على تجربتي فإنّ كلّ المسار الذي يبدأ منذ 1950 كانت خلاله مفاهيم

الأمة وتصوراتنا عنها بسيطة، وإلى ذلك الحين كانت تصوراتنا تلك كافية لاحتياجاتنا السياسية والفكرية. أمّا الآن فإنّ الزمن والأفكار تغيرت ولذلك نرى من الضروري القيام بمراجعة شاملة.

هل نحن أقل شأنا من أسلافنا البعيدين الذين -رغم معارفنا المحدودة عنهم- يبدون أقرب إلى الوقائع الحية لمجتمعنا وماضيه، واستشهادا بتفكيرهم وسلوكهم اليومي الذي نجد بصماته في النصوص القديمة، يعرفون أنّ الشعب متنوع فسلكوا سياسة التسامح وحسن التفهم التي بفضلها ظل المجتمع متماسكا وما بعض التصدعات التي تحدث أحيانا إلا استثناءات لا تضرّ بالنظام المعمول به، وطيلة التاريخ القديم والقرون الوسطى والفترات اللاحقة، كانت النخبة من الأدباء والمؤرخين لم تهمل في كتاباتها أيّا من الأحداث والوقائع في حاضرها وماضيها فأعطت لتاريخ الشمال الأفريقي منذ ألف سنة بعده الأكثر اتساعا والممكن في عهدهم.

كنت قد حاولت الإحاطة بالنظم التاريخية القديمة وكذا القريبة منا في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، والواضح أنّ هدف هذه الدراسة هو تقديم نقاط أساسية من تاريخنا على الخصوص في فلسفته، وتبيان أن هذا التاريخ لا ينبغي فصله عن أصوله ولا عن حجم الحقائق التي يتضمنها أو ترتبت عنه : النيوليثي، الصلة بعالم البحر المتوسط ، المزغنة (Berbérité) الرومنة ، العربنة ، الحداثة... أي كل المكتسبات - كما كنت قد أشرت - الناجمة عن المعاناة تحت نير الاحتلال ولكنها مع ذلك تظل مكتسبات مهمّة.

وأنا أختم هذا التمهيد أودّ تكثيف الفكر حول بعض المرجعيات التي يبدو لي أنها تثري على وجه الخصوص روح التفتح الذي لا تخلو منه الكتابات القديمة، والتي هي جديرة بأن نحكم من خلال ديمومتها على روح العصر. لأنه منذ عقود إلى يومنا (لا يمكن أن يتكرر في كثير من الأحيان) نرى أنّ المفاهيم والأيديولوجيات حصرت تاريخنا في حيّز ضيق مع أنّ الأسباب التي أدّت إلى هذه النتيجة لا سند لها، ومع استمرار الأفكار القديمة نرى في الأفق ارتسام تيارات فكرية جديدة، وأن الحكومة وحزب جبهة التحرير بصدد التحضير لميثاق ثقافي

وهذا يمثل في الأخير تقدما يتكامل في أحسن توجّه متّخذ يأخذ في الاعتبار معطيات تاريخنا.

مع أنّ نصوص تيت - ليف (تاريخ الرومان) وسالوست (يوغرطة) وقيصر (الحرب الأفريقية) ... وآخرين صادرة عن شخصيات رومانية صميمة، مدفوعة بفكرة أنّ روما هي قلب العالم فإنّنا ونحن نتصفح هذه النصوص نكتشف أنّه رغم تلك المركزية المتمحورة على الذات الرومانية هناك مكانة خاصة لباقي العالم وأنّ القرطاجيين أندادا للرومان وأنّ هانيبال هو أكبر قائد عسكري في القديم وأنّ للأمازيغ سياستهم الخاصة: يعقدون تحالفات وأن ملوكهم كانوا يحظون بالتقدير وأن فرسان ماسينيسا لا بديل لهم وإليهم يعود النصر الحاسم في معركة زاما وأنّ جيش بوكوس يعدّ خمسة وعشرين ألف محارب، وأنّ مدن وقرى أفريقيا كانت غنية بالقموح والذهب وقد طلب منها تموين جيوش سيبيون، وبعده قيصر في حربه ضدّ منافسه بومبيوس، وأنّ التحالف مع الملوك والمدن النوميدية كان عنصرا أساسيا في استقرار الوضع في أفريقيا وحتى في روما ذاتها، وأخيرا ومنذ القرن الثالث استحوذت أفريقيا لفائدة شعبها على جوهر الحضارة الرومانية : ففي القرنين الرابع والخامس أصبح الأدب اللاتيني أفريقيًّا على الأقل الكتاب الذين يمثلونه كانوا من الأمازيغ (أبوليوس، القديس أوقوستين ، دوناتوس، ترتوليان، أوروز ...)(IV).

هذه المفاهيم والتصورات قد تبدو جريئة أو مزيفة مع أنها تستند إلى نصوص وإلى وقائع مشهود لها، أما بالنسبة لنا فإن ما يبدو مزيفا (وهو ما أبرزناه في بحثنا في شأن حضارة الريف الجزائري) هو مثلا تصور أفريقيا رومانية دون إدراج العنصر الأساسي لأن أفريقيا لم تكن رومانية ولكن كانت أمازيغية ?رومانية (تماما كما هو حال المجتمع الفرنسي الذي كان في ذات الفترة غالو-رومانيا وهنا كان الفرنسيون سباقين إلى إبراز الحقيقة في ما يتعلق بتاريخ بلدهم).

بالنسبة للكتّاب اللاتين (وحتى الإغريق) الذين اطلعنا على بعض نصوصهم واقتربنا منها، لو تركنا لبعض الوقت الأيديولوجيات السياسية والمذاهب التاريخية على طريقتهم لوجدنا أنهم أعطوا لأفريقيا صورة كاملة وحقيقية إلى حدّ كبير.

هذه الرؤية المنصفة نجدها في كتابات القرون الموالية عند الكتّاب باللغة العربية عربا وأمازيغ ومصريين وسوريين وأندلسيين.

في الواقع ، كانت أفريقيا التي ظلت تحمل هذا الاسم طيلة فترة معينة، ثمّ أطلق عليها اسم المغرب ظلت بالنسبة لجميع من أشرنا إليهم بلاد البربر والعرب الذين جاءوا لنشر الإسلام والأفاريق وهم الأمازيغ المترومنون الذين اعترف لهم بخصوصيتهم، ذلك هو الوضع الذي كانت أفريقيا بدقّة في القرن السابع الميلادي، وما نخشاه هو أن هؤلاء الكتاب الذين رووا أحداث الفتح منذ بداياتها لا يولون أي اعتبار لأهل البلاد الذين ما هم إلا شعوب متوحشة تعبد الأصنام أو تعتنق أديان الكفّار. لا شيء من ذلك حدث، ويمكننا القول بشيء من الوثوقية أنّ مثل هذه الآراء لا تزال إلى حد الآن، رغم مرور أربعة عشر قرنا من التطور الفكري.

كانت نظرة الكتاب على اختلاف اللغات التي كتبوا بها : لاتينية وعربية وحتى أمازيغية (لأننا نكتشف في كل مرة نصوصا أمازيغية) في عمقها نظرة واحدة يمكن اختصارها في أنها سجلت أن الشعوب المغلوبة كان متاحا لها - بالنسبة للرومان لو أرادت - أن توقف المقاومة وأن تقبل الخضوع للنظام الروماني بموجب لاتفاقية تحالف وصداقة وفي حال الفتح الإسلامي أن تعتنق الإسلام وفي الحالتين كانت شخصية وقيم وهوية الشعوب معترف بها ولم تكن محلّ نفي على الإطلاق.

كتاب القرن الحادي عشر الميلادي كانوا أكثر موضوعية مثل ابن خرداذبّة الذي قام بجرد كامل للقبائل الأمازيغية وابن عبد الحكم من ذات الفترة الذي نجد فيه معلومات دقيقة ولو نسبيا عن الأفاريق، وأخر كاتب ظهر في فترة متأخرة كان للنويري وهو مصري من القرن الرابع عشر الميلادي وضع جدولا للفتوحات هو الأكمل حيث يتساوى الجميع : أمازيغ وعرب وأفاريق وروم .

وماذا عن الدين ودوره كنظام هو الأرقى في تنظيم المجتمع ، لم يغب ذلك عن أعين وأقلام الكتاب القدامى وليس أقل مما تمثله كأداة سيطرة سياسية واقتصادية.

نقرأ في "المناقب" وهو نوع من المديح لأبي محرز خلف: "... أخي نهايتنا قربت وأفعالنا مقيتة وحياتنا مترفة والعالِم

أضحى آثما والقاضي طاغية والبائع غشاشا والمؤمن خائنا والأخوة مخادعين والأبناء بلاءً والجار مؤذيا والصديق مقلقا والسلطان شيطانا (يقصد الفاطميين)... والعفيف ضعيفا والمسلم مماحكا ... وكل ترك دينه حتى صار الأمان يشترى والخيانة يدفَع لها ثمن والدين سلّما نحو الثراء" ( ). ما أروع هذه الواقعية في تسجيل الوقائع فهذا النص على قِدمه هو وحده الذي يبقى معْلما شامخا ينبغي أن نستدل به في دراساتنا وفي تعريف الموقف الواجب اتخاذه إزاء التاريخ، وما أروع هذا النصّ القادم من أعماق التاريخ! على عكس بعض النصوص لكتاب آخرين حجبت التاريخ على طريقتها بصفة شبه كلية.

نصل الآن إلى هذا المؤرخ والجغرافي في الآن ذاته الذي كتب مؤلَّفه ما بين 1060-1070 وهو كتاب المسالك والممالك، هذا الكاتب هو أبو عبيد البكري تعتبر مساهمته في التعريف بالوضع الاجتماعي والاقتصادي لمغارب العصر الوسيط مساهمة أساسية وخاصة في ما يهمّنا هنا فقد أرجع الرأي العامّ المشترك للمثقفين والموظفين (وهو أحدهم) وقادة الشعب ومنهم أراد أن يفهم ما رأته عيناه، فبالنسبة لهؤلاء جميعا تمثل المغارب منطقة شاسعة عامرة بالحضارة من خلال مدنها ومعالمها وبالتاريخ من خلال التأثيرات والإبداعات التي أقامها الإغريق والقرطاجيون والرومان وهي أعمال إبداعية يعتبرها الجميع جزءا من تراث غني.

وصف البكري تذكير تاريخي ضروري لفهم أفضل لجوانب جغرافية في الأساس، يعطي للمغارب مخططا يجعل بعض الأشياء تختلط علينا، أشياء لا يزال يلفها النسيان ومع البكري نسبح في فضاء شاسع بعيدا عن كلّ تقييد أو تضييق، وما أروعه حتى في مجال الدين ذاته يبدو كونيا ! يتحدث عن هيبون فيشير إلى أنها مدينة "أوغوشطين" (القديس أوقوستينوس) كبير رجال الدين المسيحي، وفي سياق آخر كتب أنّ مفهوم "الله الواحد" وصل لأول مرة إلى المغارب على يد "أبناء عيسى بن مريم" (المسيحيون) وهذا صحيح تماما.

لقد لفت اهتمامنا عدة كتاب غير معروفين ولكنهم أقدم بكثير، لأننا نرى أنّ في نصوصهم الكثير من التفاصيل المتعلقة بالمجتمع وبالحضارة في المدن والقرى ومعلومات عن المباني واللغات

والتقاليد والعادات ووضع التعمير السكاني والبنيات الاجتماعية وذهنيات الشعوب، في تلك الأزمان كان المحللون والمؤرخون يكتبون بلغة الحقيقة دون الخوف من أن توجّه لهم تهمة العمالة لغزو ثقافي من أي نوع كان.

لقد غرزت النزعة إلى الحقيقة التاريخية جذورها كما أشرنا إليه في التاريخ القديم، ودامت إلى القرون الوسطى وازدادت رسوخا على يد أخر الكبار من المؤرخين المغاربيين وهو ابن خلدون الذي لا نقترب منه دون أن تأخذنا الرهبة فعمله -الغني عن كل بيان- شاسع وعميق شامل لكل تاريخ المغارب بحث فيه وحلل عِلل الوقائع وهو كتاب كوني لأن ابن خلدون أرّخ للحضارة عموما،وتظهر عبقريته في اتساع نظرته إلى حدّ أنّه خرج بفكرة أنّ تاريخ المغرب يفهَم على ضوء التطور الذي كان عالم البحر المتوسط والشرق مسرحا له.

وفي نهاية هذه النظرة العامّة خطرت ببالنا فكرة في شكل استنتاج عامّ وهي وجود حضارة شمال أفريقية وضمنها أخذت الحضارة الجزائرية ملامحها الخاصة، وعلى اعتبار أن كلّ حضارة هي تجميع لعناصر مركبة منذ البدايات وفي جوانب مختلفة فإنّها بذلك فقط تكُون حضارة، وأن كل محاولة للحدّ من تنوع مكوناتها يشوهها ويحدّ من توهجها وإشعاعها.

ثمّ ماذا ! ألا نملك القوة والإرادة لنحب وطننا كما هو، وكما هو لنا، وأخيرا ويوما عن يوم كما نراه ينمو ويتقوى بفضل إسهامات كلّ أبنائه

عبر العصور يواصل الشعب مساره ، ما ينبغي هو اقتفاء أثره خطوة خطوة، وفي كل مرة؛ لقطف ثمار أعماله وتشرّب كل قيمه من مروياته الشفوية وفكره المدوّن، والتواصل معه في نقاط ضعفه وحتى ضمن حدوده التي كانت في وقتها ترسم طريق الاعتراف بالهوية والثقافة الوطنية.

وحري بنا أن نواصل الإسهام في التراث المشترك بقسطنا من الحقيقة كما فعل من سبقونا ففي التاريخ تواصل عبر كل تقطّع !

ماذا يمكن فهمه من الرؤى الجديدة التي تظهر هذه الأيام كمحاولة لتجريد التاريخ من معناه ومدلوله وتبرير ذلك على أنّه من أجل المصلحة العليا للأمة، في حين أن ما يراد سلبه من التاريخ هو الذي يشعرنا بهويتنا وبقوتنا.

إحالات

(×) النص الذي بين أيدينا مقتطف من : DJENDER (Mahieddine), Introduction à l'histoire-de l'Algérie, ENAG éditions, Alger ,2006 pp. 7-.31؛ وقد اعتمدنا في هذه الترجمة الطبعة الثانية الصادرة عن المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية (رغاية، الجزائر) سنة 2006.

( ) - Abou Zakaria , Chronique, trad. R. le Tourneau, in Revue africaine, 1er et 2ème trimestre, ,1960 p. .99 (**) كتب المؤلف الكلمة العربية كما هي وبالحرف اللاتيني.

(×××) العبارة الأصلية: Le Territoire de l'Historien وقد رأينا تعريبها بمجال المؤرخ لان الترجمة اللفظية : إقليم المؤرخ غير مستساغة في رأينا.

(××××) كورتيس Cortes هو مجلس التشريع في إسبانيا.

( ) مصطلح الـ Economisme يعبّر عن نزعة في العلوم الاجتماعية تعتبر كل الظواهر الاجتماعية ظواهر اقتصادية، كما يستعمله بعض من يرون في الاقتصاد أيديولوجية. كما يوظفه البعض لنقد الرؤية الاقتصادية البحتة للمجتمع.

(×××××) المقصود هو نشوء الشكل الحديث للدولة وهو الدولة ؟ الأمّة.

(××××××) استعمل الكاتب عبارة Agression culturelle وأظنه يقصد الغزو الثقافي وليس العدوان لأن عبارة الغزو الثقافي هي المتداولة في الأوساط المعرّبة.

() يراجَع : Thiery (A.), Essai sur les origines et les progrès du Thiers- Etat

() voir Hist. De la Litt. Romaine, par Jean Roy et Puech, pp. 327-.352

( ) -Manaqibs d'Abou Tahir Al Tarissi, trad. de H.R. IDRIS, éd. PUF, Paris 1959 (texte français p.,390 texte arabe p. 136)

إشكالية المصطلح اللّساني والترجمة

أ.د. عبد الجليل مرتاض - جامعة تلمسان-

العمليَّـــة التّرجميَّـــة: بين العقـــل و العاطـفـــة

كريستين دوريو - ترجمة: الجوهر خالف

إشكالية المصطلح اللّساني والترجمة

أ.د. عبد الجليل مرتاض

مصطلح أم مصطلحات

لعل أنسب عمل تركه أندري مارتيني مفصّلا وموضّحًا في اللسانيات السانتكسية والوظيفية كتابه الموسوم "عناصر اللسانيات العامة

"Eléments de linguistique générale"

الّذي تُرْجِم إلى العربية بأكثر من مترجم، إحدى هذه الترجمات لأحد الأساتذة السوريين من الألمانية، وليس من لغته الأصل، وهي ترجمة إنشائية بعيدة عن لبّ دقائق ما ورد في هذا الكتاب، حتى إنها لا تقول ما يقوله، ولعلّ من أسباب ذلك أن المترجم مختص في الأدب المقارن، ولا صلة له باللغويات قديمها ولا حديثها، ومما عجبت له أن هذه الترجمة مقدّم لها من اللّساني الجزائري المعروف بصرامته العلمية الحاج صالح عبد الرحمان.

وحَسبُنا ملاحظة على الترجمة المشار إليها أعلاه ما جاء في الترجمة الجزائرية "وتعدّد الترجمات ليس جديدًا، والّذي ينبغي أن نقوله بالنسبة لعملنا هو أن كتاب مارتني طبع أكثر من مرة، والّذي تنفرد به ترجمتنا هو الاعتماد على طبعة سنة 1980, وهي مزيدة ومنقّحة بالنظر لـ ط1970, بالإضافة إلى ذلك، نذكر سبَبَيْن رئيسيَّين (بالنسبة للترجمتين السابقتين)(VI) جعلانا نقدم على العمل أولهما أن الأستاذ أحمد الحمو ترجم عن ترجمة كان يتقن الألمانية فاعتمد الترجمة الألمانية، ثانيهما أن الفصل الثاني من ترجمته لا يحتوي إلا على ست عشرة فقرة من بين تسع وثلاثين فقرة في الأصل؛ أي بفارق ثلاث وعشرين فقرة أو ما يعادل عشرين صفحة من الكتاب، أما الترجمة الثانية، فيغلب عليها إبقاء المصطلح الفرنسي، والأمثلة المأخوذة من الفرنسية"(VII).

ومع عدم اطلاعي على ترجمة ريمون رزق الله، فإن ملاحظة الزبير سعدي على إبقائه المصطلح الفرنسيّ والأمثلة الفرنسية، كافية لتقنعني أن هذه الترجمة أفيد من هاتين الترجمتين، وخاصة بالنسبة للمصطلحات اللسانية المتفاوتة بشكل فاحش بين اللسانيين الفرنسيين أنفسهم، فكيف يعد ترجمتها إلى لغات أخرى لا تشترك أرومة معها؟ أما إبقاء الأمثلة باللغة الأصل، فهو الصواب بعينه، لكن يجب ترجمتها إلى اللغة الهدف في الوقت نفسه.

أيًا كان الأمر، فإن الترجمة الثالثة ليست بأفضل ولا أسوأ من الترجمتين اللتين سبقتاها، إذ أن أول خطأ نجده في العنصر الأول من عنوان الكتاب، حيث كتب ''Elément'' مفردًا، وهو مذكر، على الرغم من أن ترجمته رُسمَت جمعًا (مبادئ)، والواقع أن ''مبادئ'' لا صلة لها في الفرنسية ولا حتى الانجليزية بـ''Eléments'' إلا إذا تعلق الأمر بمبادئ فيزيائية Eléments de Physique وتُرسم في الفرنسية Elément وفي الانجليزية Elément (العنصر)، لأن العنوان الأصل مستوحى من عناصر مجموعة Eléments d'un ensemble ، أي أن العناصر اللغوية المتناولة في الكتاب مشبّهة بعناصر مجموعة رياضية.

أما في جانب المصطلح، فإنه متباين مع ماهو متعارف عليه تقريبًا بين جل اللسانيين العرب المحدثين، إذ كيف يمكن لمتلقٍّ مطلع على المبادئ الأولى للسانيات أندري مارتني أن يُسيغ ترجمة Analyse en monèmes إلى ''تحليل إلى كلمات''، وهو يعلم بداهة أن الكلمة شيء، والمونيمة التي هي أصغر وحدة دالّة شيء آخر؟ بل كل كلمة مونيمة، وليست كل مونيمة كلمة، وأنّى لك أن تقبل ترجمة Actualisation إلى اجتعال، وهي تعني بكل بساطة انتقال الشيء لطور الحقيقة كتأدية صوت أو إخراجه أو تحيين الشيء كجعله ينتقل من القوة إلى الفعل؟ وأنّى لك أن تهضم إطلاقه ''الصّويتي'' على ماهو فونيمي وفونولوجي: ''Analyse Phonologique تحليل صوتي''، و''Phonème صوتي''؟، ولك أن تتأمّل جزءًا من هذه المصطلحات وتجيب بنفسك:

1 Chaîne parlée	مدرج الكلام
2 Code	وضـع
3 Conjoint (monème)	كلمة اقترانية
4 Copule	عـمـاد
5 Corrélation	تنـاظر
6 Créole	كرييول
7 Culminative (Fonction)	أوجية (وظيفة)
8 Fonction (des éléments phoniques	وظائف العناصر اللسانية
9 Lexème	معجميّ
10 Linéarité (du langage)	صـفي
11 Marque (de corrélation)	علامة (تناظر)
12 Maternelle (langueì)	الأمّ (لسان)
13 Message	خطـاب
14 Modalité	قـرائن
15 Mode	صيـغ
16 Monème	كلمـة
17 Monème Autonome	كلمة مكتفية
18 Morphème	''نحـوي''
19 Morphologie	تصـريف
20 Morpho (pho) nologie	تصـريفي- صـوتي
21 Ordre (dans une correlation)	قبيل (في تناظر)
22 Paradigmatique	جدولـي
23 Participe	اسم (فاعل/مفعول)
24 Synthéme	نسـق

والّذي يكاد يكون متفقًا عليه أو على الأقل مستأنسًا به أن المصطلحات اللسانية أعلاه متداولة بشكل واسع أو ضيق على النحو:

1- بدل مدرج الكلام، سلسلة الكلام أو التكلم أي تتابع الأصوات المتلفظ بها خطيًا: كـ/ت/ب، وزمنيًا.

2- بدل الوضع الّذي لا صلة له بما جاء، نقول: رمز الاتصال المتواضع عليه في إطار جماعة لغوية معينة، ولو استعمل بدله المواضعة بالمصطلح البَنْجَنِيِّ (نحت ابن جني)، لكان أليق وآنَسَ، وكنا اقترحنا ''السّنن'' ترجمة لـِ Code استيحاء من عنوان أول كتاب فقلغي (نَحتُ فقه اللغة) عربي لابن فارس.

3- مقابلة مونيم بكلمة أمر غير مقبول، لأن كل كلمة مونيم، وليس كل مونيم كلمة: فكلمة ''سنستدرجهم'' مؤلفة على الأقل من خمسة مونيمات، هل يجوز القول فيها إنها مؤلّفة من خمس كلمات؟ وConjoint تعني المتصل أو المقترن، فضلاً عن دلالات أخرى، والأنسب القول: مونيم مقترن.

4- نقول: Fonction Copulative (وظيفة الوصل أو الربط)، ومن ثم فـ: Copule منطقيًا ونحويًا تعني رابطة.

5- لا ندري من أين جاء ''تناظر'' تقابلاً Corrélations، إلا إذا استُوحيَ من ''الارتباط المتبادل''، وإلا فإننا نقول:

- ارتباط صوتي متبادل Corrélation Phonétique

- ارتباط دلالي متبادل Corrélation Sémantique

أي Corrélation تناظر علاقة أو ارتباطًا، ولو قيل: ''المضاهاة'' بدل تناظر، لكان أقرب.

6- المعروف عن Créole أنه كل تواصل لغوي طبيعي هجين، كالعامية الجزائرية وخاصة وسط المغتربين في فرنسا:

- صباح الخير.

- Comment t'allez-vous ?

- الحمد لله.

- فَرَّاكْ ماشِي؟

- آ، رَنِي ماشِي لْبَالَة (La pelle) والفَاسْ

(انتبهِ! اذْهب على مَهل)

- Attention ! vas-y doucement

7- هذا المصطلح يُقصَد به عادة وظيفتان: تزايدية، ونبرية أي:

Fonction Culminative de l'accent، وهي من Culmination (بلوغ الأَوْج).

8- نلاحظ هنا أن المترجم ترجم Elément ترجمة سليمة، بينما ترجم عنوان كتابه "مبادئ..."؟

9- اضطربت قواميس المصطلحات اللسانية المزدوجة اضطرابا شديدا، ومعها المؤلفات اللسانية العربية الحديثة، ولا تكاد تجد مصدرًا يتلاقى مع مصدر آخر، منهم من يترجم Lexème إلى معجمي، كما نجد هنا، ومنهم من يسميها المفردة المجردة أو الوحدة الجذرية، ومنهم من يقول فيها: مفردة متمكنة، وآخر يطلق عليها المفردة، والمصطلح الّذي استأنست به ما وجدته في القاموس المزدوج العام للمرحوم الدكتور سهيل إدريس، حيث يسمي اللكسيم "المأصل" أو "جذر الكلمة" وأنا آخذ بالأول (المأصل)، وهو نعم الصواب في نظرنا.

10- لا أدري، من أين وردت "صفي" لتقابل Linéarité، إذ المتفق عليه أن Linéarité تعني بكل بساطة كل ماهو خطي تتابعي أو الترتيب التسلسلي للأصوات أو الكلمات، حين يؤدّي تغير إحداهما إلى تغير في الأخرى، يكون متناسبًا مع تغير الكمية الأولى، لأن الوحدات تتعاقب أو تخلف الواحدة منهن الأخرى، ولكن لا يمكن أن تكون متماثلة في آنٍ واحد في نفس النقطة للسلسلة الكلامية.

11- إذا كنا نطلق علامة على Marque، فبأي مصطلح نسمّي Signe مثلا؟ وهناك بعض القواميس اللسانية تطلق نفس المصطلح (علامة) على Marque، والأنسب أن نترجمه: "شارة" أو "طابع" أو "مَيِّزة".

12- ما وقفت، إلا هنا، على أحد يختلف مع الآخر، بأن Maternel يشار بها إلى كل ماهو أمومي، ومنها Langue Maternelle أي لغة الأم التي نتعلّمها في قرانا وحواضرنا أول ما نتعلم بصورة سليقية لا شعورية.

13- Message، لعل المترجم استأنس بترجمة هذه الكلمة إلى "خطاب" بما ورد في بعض القواميس اللسانية المزدوجة التي ورد فيها فعلاً هذا

الشكل من الترجمة، والأشهر من نار على علم أن Message تقابل العنصر الرابع من عناصر التبليغ الستة لدى جاكبسون، والوظيفة الشعرية، ونطلق عليها ''مرسلة'' تجنبًا للرسالة التي قد يعني بها شيء أوسع وأعمّ من المرسلة، وأما خطاب،فلا أحد يختلف مع نظيره بأنه ما يعرف بـDiscours حتى وإن كان بعض الدارسين (هاريس) يسمي الخطاب ملفوظًا متصلاً أو سلسلة من الملفوظات.

14- يترجم المترجم Modalité بـ''القرائن''، مع أنّ هناك من يطلق القرينة على السياق Contexte أو على Indice، وربما سمّاها مصدر لساني مزدوج آخر ''حكم الكلام'' من أمر، وتمنٍّ، وخبر، واستفهام، أو ''الدواخل'' (في البنيوية الوظيفية)، بل ''معاني النحو''، على حين أن القواميس المزدوجة العامة لا تكاد تختلف في ترجمة Modalité أو Modality إلى:

- طريقة، كيفية، وضع

- أسلوب: الطريقة التي تكتب بها المقطوعة الموسيقية.

- إلى جانب مداليل أخرى.

والّذي نخلص إليه أن ''القرينة'' Modalité أنسب استعمالاً في مجال السياق والبلاغة، كالقرينة اللسانية (السياقية) والقرينة غير اللسانيّة أو الحالية في مقابل القرينة المقالية،... وكان الجاحظ ممن برع ذهنيًا في التمييز بين السياق المقالي Contexte Verbal والسياق المقامي Contexte Situationne ، أي موافقة الحال، ''وما يجب لكل مقام من مقال''.

وكنت آنفا أشرت إلى الصعوبة التي وجدتها في ترجمة هذا المصطلح، إلى درجة أنّي عبّرت عنه بكلمته الأجنبية إفرادًا وجمعًا، تلافيًا للغموض المصطلحي إذا ما ترجم ترجمة تحريفية إلى العربية، ولعل كلمة ''كيفية'' أقرب من ''قرينة''، وهذا كله لا يجعلنا في غفلة من أمرنا، بأن هناك فعلاً قرائن نحوية، وحتى في القواميس اللسانية الأجنبية لا تقف على مصطلح أحادي مباشر، يُعبَّر به عن هذه الكلمة، فهذا جورج مونان مثلاً يقول في موداليتي ''كلمة متعددة المعاني إلى أبعد حدّ Extrêmement، تشير إما إلى نمط الجملة (كيفية مؤكّدة أو إثباتية، استفهامية، دالّ على التمني، إلخ)، وإما إلى القيمة الدلالية للصيغ Des modes (صيغة

(أو كيفية) إخبارية أو دلالية، صيغة فعلية التزامية Subjonctive شرطية Hypothétique الخ)، وإما إلى درجة الفارق الأسلوبي لملفوظ (كيفية ارتيابية Modalité Dubitative).

وتدل الكلمة (Modalité) عند أندري مارتني حصريًا على المحدّدات النحوية (التي جردها محدود) لوحدة دالّة Significative: فالجمع، أداة التعريف، المِلْكِي أو الدالّ على المِلكيّة Le Possessif، اسم الإشارة كلها كيفيات اسمية، في حين أن شارة الشخص والعدد والزمن تشكّل كيفيات فعلية (في الفرنسية)".

15- ترجمة Mode إلى صيغة مناسبة إلى حدّ ما، ولكنها متداخلة معنويًا مع Modalité: صيغة الفعل، كيفية التلفظ، كيفية الدلالة. وعرّفه ج.دُبْوا "المُودْ Le mode فئة نحوية شريكة عمومًا للفعل ومترجمة عن نمط التبليغ المقام من قبل المتكلم بين هذا الأخير ومخاطبه (وضع الجملة Statut de la phrase) أو موقف المتكلم Le sujet parlant بالنسبة لملفوظاته المتعلقة به"( ).

ومما هو ملاحظ أن جون دبوا يعدّ "مودالية" مرادفًا لـ"مود Mode"

فالتراكيب:

- يجيء سمير - إثباتية.

- هل يجيء سمير؟ - استفهامية.

- هل سمير لن يجيء؟ - استفهامية.

سلبية تمثل كيفيات Modalités أو صيغًا Modes.

ونشير إلى أنه ليس بالضرورة أن كل ما ينسحب على لغة ينطبق على لغة أخرى، ومن هنا تبدو علة فوضى المصطلح، كلما أراد أحدنا أن يخضع لغته إخضاعًا تعسفيًا أو قهريًا إلى مصطلحات لا تتماشى مع طبيعة لغته البريئة التي قد لا تحتاج أصلاً إلى كل هذه المصطلحات، أو هي في حاجة إلى مصطلحات لا تزال غائبة عمّا ينسجم مع أنظمتها الداخلية المستقلّة.

16- سبق أن أشرنا إلى أن هذا المصطلح لا يعني الكلمة، بل أصغر وحدة دالة من التقطيع المزدوج الأول، فكلمة: اذهبوا تحوي مونيمتين اثنتين: اذهب+وا، والكلمة: يَذهَبْن تتضمّن ثلاث مونيمات: يـ+ذهب+ن(نون النسوة).

والمونيم مرادف تقريبي للمورفيم Morphème المصطلح الأمريكي، وينبّه بعض اللسانيين إلى الحذر من الخلط بين المصطلحين، فالمورفيم الأمريكي يساوي المونيم النحوي عند مارتني، والمونيم بالنسبة لمارتني يكون ثمة اختيار، لا الشكل وحده وحسب، ففي جملة فرنسية ''La grande chaloupe (زورق الإنقاذ الكبير) لا تشكل العلامات الثلاث للمؤنث أي اختيار، ومن ثمّ فليس هناك مونيم؛ أي يكون المونيم حين يتم التمييز بين جنس المؤنث وجنس المذكر، كما في Tigre (نمر) تعارضًا مع Tigrisse (نمرة).

17- من الأقرب أن نقول المونيم المستقلّ، وإلا قلنا المونيم المكتفي بذاته أو القائم بذاته.

18- سبق أن أشرنا إلى هذا المصطلح Morphème وهو يعادل المونيم النحوي عند مارتني، وليس معنى هذا أن هذه المعادلة وحيدة ونهائية، إذ المصطلح Monème لدن مارتني علاوة على تعريفه العامّ بأنه أصغر وحدة دالة، فإنه قد يكون كلمة عادية أو جذرًا لها أو بادئة أو لاحقة، ونحيل مفهوم المورفيم على ما قاله جورج مونان ''هذه اللفظة يمكن أن تغطّي معاني مختلفة جدًا من مؤلّف إلى آخر، والأهمّ أننا لم نُعد نفكر اليوم بأن المورفيمات لن تكون إلا شكلاً دون معنى، في حين أن المورفيمات من وجهة تقليدية عند فندريس Vendryes مثلا، كانت عناصر نحوية (كلمات فارغة) وظيفتها بيان العلاقات المقامة بين الأفكار المعبّر عنها من قبل دوالّ الماهية Les Sémantèmes (كلمات مليئة Pleins Mots)، ولا يوجد من بين المورفيمات الكلمات النحوية وحسب (حروف الجر، روابط العطف والنسق...)، بل كذلك النغمات الصوتية موقع النبر، ترتيب الكلمات...الخ''(X).

19- سمّى المترجم Morphologie تصريفًا، وإذا كنا لا نعارض مبدئيًا هذه الترجمة الأقرب إلى المصطلح الشائع الّذي عادة ما يقابل به النحو، فإننا كيف نترجم مصطلح Conjugaison المتعارف عليه أنه علم الصرف؟

وكنت منذ مدة طويلة وقفت على ترجمة Morphologie إلى ''علم الصيغ'' عند الناقد المميز محمد مندور، بينما ترجم Syntaxe بعلم النَّظْم(XI)، وهذه الترجمة أنسب في نظرنا من

"الصرف" الّذي لا يعني تقليديًا إلا حقلاً محدودًا، ويستحسن أن نعرّبه بدل أن نترجمه، لأننا لسنا ملزمين بترجمة كل مصطلح أجنبي إلى العربية ولو بأقصى الطرائق التعسفية، بل يُستحب التعريب قبل الترجمة.

وما تقوله المصادر اللسانية المختصة أن المورفولوجيا تقليديًا دراسة الأشكال في اللغة، والتغيرات في شكل الكلمات لتوضيح علاقاتها في كلمات أخرى من الجملة، وسيرورة نظام التكوين في كلمات جديدة، وهي تعني:

1)- لدى فندريس الدراسة للمورفيمات التي تتميز عن دوال الماهية.

2)- لدَى سويت Sweet الدراسة للتبدلات الشكلية لكل فئة من الفئات النحوية، أي تعالج عنده تصريف الاسم، التركيب Composition والاشتقاق (مورفولوجيا معجمية)، ترتيب الكلمات، أقسام الخطاب.

3)- عند جسبر سن Jespersen تعالج دوال وظائف نحوية (لاحقة أو بادئة، كلمة نحوية، ترتيب الكلمات).

4)- لدن بلومفيلد تدرس التبدّلات لأشكال الكلمات (وحدات معجمية مِثل وحدات نحوية)، حيث المورفيمات التي لا تتواجد دائمًا وحدها كملفوظات كاملة كزائدة أو لاحقة تَرِدُ كعناصر مُقوِّمة.

5)- عند مارتني تخص المورفولوجيا التغيرات لدوال المونيمات أو البدائل الصرفية Allomorphes بالمعنى المبلومفيلدي، فالمورفولوجيا التركيبية تدرس تغيرات المونيمات النحوية (قواعد المطابقة، التصريف...).

6)- ترجم المترجم هذه الكلمة الغريبة نسبيًا إلى كل ماهو صوتي أو تصريفي، وترجمها آخرون علم أصوات البنى مقابلة لعلم تراكيب البنى Morphosyntaxe، أو علم الأصوات الصرفي، وكان تروبتزكوي Troubetekoy أدخل المصطلح في اللسانيات للإشارة به إلى دراسة تعاقبات الفونيمات المستعملة كأنساق مورفولوجية، وهذه التعاقبات لا تخضع إلى توضيبات فونولوجية بل إلى توضيبات مورفولوجية، ونظرا لغموض هذا المصطلح، فإن أندري مارتني تحاشاه معتبرًا إدخاله في اللسانيات يشكل غموضًا خطيرًا بغية التحليل بين مستويين مختلفين في اللغة،

ولا يعتبر هذه المصطلحات الثلاثة في النهاية إلا دراسة لتقلبات لدوال المونيمات.

20- لا ندري هل استعمل أندري مارتني Ordre بمعنى ''قبيل أو (في تناظر)، فالرجل تحدث هنا عن جرد المقاطع الفونيميّة الخاصة باللغة الفرنسية''(XII)، ولكن هل هذه الترجمة بعيدة عن استعمالها المصطلحي والمعجمي معًا طالما أنها تعني نظامًا أو ترتيبا أو تنسيقًا وما دار في فلك هذه المعاني: ترتيب الكلمات، ترتيب مخارج الأصوات،...؟، كلمة Ordre لدى اللساني تشير إلى مجموعة من الفونيمات الصوامتية ذات النقطة نفسها للنطق في لغة من اللغات، ولذا فيظهر أن المترجم وُفّق إلى حدّ قريب، دون إزالة ما يسود الترجمة كليًا من لبس.

21- المشكل أن هذه الكلمة مأخوذة من Paradigme التي مما تعنيه نمطية الاستبدال (إحلال كلمة محل كلمة) أو ميزان التصريف، لكن Paradigmatique عادة ما تقابل Syntagmatique حيث يراد بالأولى محور الإبدال (عمودي) وبالثانية محور التركيب (أفقي).

22- هل يُعبّر بـ Participe عن اسم المفعول واسم الفاعل معًا؟، الذي نعرفه أن اسم الفاعل يقابله Participe Présent، واسم المفعول يقابله Participassé.

تنويه بترجمة لسانية

وهذا إلى جانب العديد من المصطلحات الأخرى التي لا نريد أن نثقل بالحديث عنها كاهل هذه الدراسة، وما لوحظ لا يعني أنه ينقص شيئًا من الجهود البريئة التي بذلها المترجم، لأن الإشكال عامّ، ولا يخص مترجمًا عربيًا دون مترجم آخر، بل الإشكال الجوهري يكمن داؤه في لسانياتنا العربية الحديثة التي لم تشقّ طريقها بعد إلى العالمية، ولا وجدت نهجها القديم في المحلية، لأن هذه اللسانيات لا تعيش فراغًا أو أزمة مصطلح وحسب بقدر ما تمر بأزمة هضم واستيعاب للنظريات اللسانية الغربية، لبُعدنا عن جذور لسانياتنا العربية القديمة الصلدة، ولعدم مواكبتنا النظريات اللسانية الغربية الحديثة.

أقول ما أشرت إليه أعلاه، لأني سأستأنس بترجمة اللساني سعدي الزبير الذي أعرف جديته اللامتناهية،

وصرامته العلمية الدقيقة في التعامل مع المعطيات التي يتناولها أو يبث فيها، منذ أزيد من ثلاثة عقود، وأنا طالب في الدراسات العليا بجامعة الجزائر، فضلا عن إتقانه أكثر من لغة أجنبية، ولكنني سوف أختلف معه في المصطلحات، وفي الحفاظ على الكلمات الأجنبية الواردة في الكتاب مع ترجمتها إلى العربية، ولربما في أشياء أخرى.

وأقول ما أقول لأني هنا دارس لا مترجم، ولكن هذا لن يَثنيني عن مقابلة هذه الترجمة في لغتها الأصل، وما يهمني من هذا الكتاب هنا رصد العناصر المتعلقة بالوظيفة عامة، والسانتكسية خاصة، وأشهد بأنّ هذه الترجمة من الترجمات الجيدة التي وقفت عليها، والتي لا تعدَمُ أن تكون أمينة إلى حدّ كبير.

الهوامـــش

- **الترجمتان المقصودتان هما: ترجمة الدكتور أحمد الحمّو** 1984, **وترجمة ريمون رزق الله عام** 1990.

- **مبادئ في اللسانيات العامة، ص:** 8, **أندري مارتيني، ترجمة: سعدي الزبيري، دار الآفاق، الجزائر (من مقدمة المترجم).**

- -Dictionnaire de la linguistique. P: 127 G.MOUNIN, Presses Universitaires de France, 1974

- -Dictionnaire de la linguistique. P: 321 Jean DUBOIS, LIBRAIRIE HACHETTE.

- -Dictionnaire de la linguistique. P:221.G.MOUNIN

- **ينظر: النقد المنهجي عند العرب، ص:** 445, **د.محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة- القاهرة.**

- -(Eléments de linguistique générale, P : ,74 ANDRE MARTINET, ARMAND COLIN, Paris, .1978

العمليّـــــة التّرجميّـــــة بين العقـــل و العاطـفـــــة

كريستين دوريو - ترجمة: الجوهر خالف

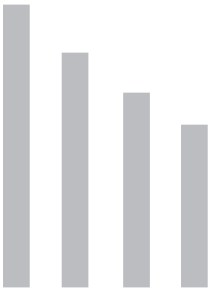

« الفكرة التي ما هي إلاَّ فكرة أو مجرَّد حدث معرفيٌّ لا تُنتج شيئاً و لا تستطيع شيئاً. إنَّها لا تكون فاعلة إلاَّ إذا تمَّ الشُّعور بها و كانت هنالك حالة عاطفيَّة تُرافِقُها و نَزَعات تُثيرُها أيْ، إلاَّ إذا وُجِدَتْ عناصر مُحرِّكة.»

(تيؤودول ريبُو، 1930 - بسيكولوجيا المشاعِر)

يتبيَّن أنَّ وُجهة النَّظر هذه، التي تمَّ التَّعبير عنها منذ قُرابة قرن، حديثة تماماً و هي في طليعة التفكير التّرجمي. و الواقع أنَّ خطّ سَيْر هذه الدِّراسة هو التطوُّر البطيء الذي عَرَفَهُ التَّفكير التّرجمي منذ الشّكليّة المُتَّسِمة باليقين و المُدَّعية موْضوعيّة كبيرة، إلى غاية نَوْعٍ مِن العقلانيَّة المحدُودة التي يُسيْطِر عليْها التأثُّر العاطفيّ (l'affect). و بغرَض تحديد تقدُّم التَّفكير، يبدُو مِن الأهميَّة بمكان أنْ نَحُدَّ تَرَقِّيهِ بوَضْع ثلاثة مَعَالِم.

لَطالَما اندرج التَّفكير التَّرجمي ضِمْن الِميزان الصَّرْفِيّ (le paradigme) لِنظريّة شكليَّة سواء أكانتْ وصفيَّة أم معياريَّة أم تقادُميَّة (prescriptive). بادئ ذي بدء، وكأوَّل معْلَم، ينبغي ذِكْر النَّظريات اللِّسانيَّة للتَّرجمة التي تُعَدُّ انبعاثاً للبنيَويَّة. و يبدُو التحدُّث عن النَّظريات اللِّسانيَّة بصيغة الجمع حصيفاً لأنّها تتضمَّن، حسب أصحابها، بَدَائل(des variantes). بيْد أنَّ كلَّ المَوَاقِف التي تندرج ضِمْن هذا التيَّار تشترك في بعض المُميِّزات و تطمح جميعها إلى موْضوعيَّة كبيرة. و تَعرِض هذه النَّظريات النَّص ككُلٍّ مُغلَق يتكوَّن مِن سِلسلة مِن الجُمل. و بهذا الاعتبار، فالنّص كيان مُتَنَاهٍ

يُشكِّل كُلاًّ مَحْدُوداً و هذا الكلّ قابل للتفكيك إلى أجزائه بحيث يمكن تشكيله من جديد بِحسَب الرَّغبة. و عليه، فإنَّ وحدة التحليل و المُعالجة هي الجملة كأقصى حدّ وأحياناً هي وَصْلات (des séquences) مِن مُستوى أدنى مِن الجملة أو بالأحرى كلمات معزولة. و عندها، فإنَّ صعوبة التَّرجمة تكمُن في عدم التّوافُق المُطلَق بين اللُّغات حيث يُنظَر إلى العمليّة التَّرجميَّة كنشاط هدفه بُلوغ نتيجة سبق وُجودها افتراضيّاً أو، على الأقلّ، التقرُّب منها بقدر المُستطاع. يُرفَق هذا التصوُّر بمفاهيم مدرسيَّة تتمثَّل في التصحيح النّموذجي الواحِد و النِّقاط التي يتمُّ حَسْمُها مِنَ العلامة القُصوى عقاباً على كلّ فرق مع المرجع المفروض بهذا الشَّكل. فكُلُّ شيء يكون نوعاً ما، موْضوعيًّا تماماً ومُحدَّدًا مُسبَقاً. والمَعْنَى مَوجود في التعبير الشَّفوي الذي يُفتَرَض أنْ يتضمَّن جميع التَّعليمات الضَّروريَّة لحساب المعنى، هذا هو المبدأ التَّعليمي. وبعْدَها، يجد كلّ تعبير في لغةٍ ما مُقابِلاً في لغة أخرى. و بهذا المَنظور، يكون موضوع الترجمة هو إذاً مادَّة لسانيَّة ذاتيَّة مُستقلّة مِن كُلّ شخص بشري في مَوْقع مِن مواقِع سِلسلة التَّواصُل. و على هذا التَّصوُّر للترجمة، ارتكزتْ الأشغال طويلاً حول الترجمة الآليّة.

وإزاء الوضعيَّة الفائقة للنَّظريات اللِّسانيَّة للتَّرجمة، تُولي النَّظريات التأويليَّة أهميَّة بالغة للبِنائيَّة بإدخال جميع عوامل التَّواصل، و هذا هو المَعلَم الثَّاني.

فالنَّظريات التَّأويليَّة وليدة تنظير مُمَارسة تُرجُمَانة مُؤتمرات مُتألِّقة تُدعى "دَانِيتْسَا سيليسكوفيتش" إذْ بيَّنَتْ أنَّ الترجمة، مكتوبة كانتْ أم شَفَهيَّة، ليْسَت بِتَرْقَنَة (transcodage)، أيْ تحويل شَفْرَة لِسانية إلى شفرة لسانية أُخرى، بل هي إعادة تعبير عفويَّة للمعنى النَّاتج عن الانسِلاخ اللُّغَويّ(déverbalisation) لِلْخطاب الأصلي. هكذا، ففي النُّسخة الأوليَّة للنظريَّة التأويلية للترجمة، تنقسم العملية الترجمية إلى ثلاث مراحل هي: الفهم - الانسِلاخ اللُّغَويّ - إعادة التَّعبير. و يبدو الأمر كما لوْ كانت مُسبَقًا لدى المُتحدِّث فِكرة غير شفويَّة تفضي إلى رغبةٍ في التعبير و رغبةٍ في المُشافَهَة، فيُلبِس المُتحدِّث فِكرَته حلَّة لُغويَّة للتعبير عنها. ثمَّ يتدخَّل المُترجِم

أو التُّرجمان الذي يتكفَّل بمهمَّة إخراج الفكرة مِن حلْيتها اللغويَّة حتى يتوصَّل إليْها بذلك مَحضةً عاريةً نوْعًا مَا، ليُلبسَها مرَّةً أُخرى، بعد ذلك، لِباسًا لِسانيًّا آخَر.

إنَّ رُؤية العملية التَّرجمية بهذا الشَّكل أكيد ساذجة و قابلة للنَّقض. و هذا ما سيُؤكِّدُه الإدراكيُّون في تساؤُلِهم: ما الفكرة المَحْضة دون قاعدة شفويَّة؟ غير أنَّ لهذه الرُّؤية فضْل جلِيٌّ يتمثّل في فعاليتها على الصَّعيد البيداغوجي. فالطَّالِب فِعلاً يفهمُ بهذا الشَّكل أنَّ الترجمة ليست عملية خطية تجعل الاحتكاك بين لُغَتَيْن و لا هي عملية توْفيق بين نظاميْن لِسانيَّيْن، بلْ هي عملية تستلزم انقطاع لُغة المَتْن (de départ la langue) عن اللغة الهدف (la langue d'arrivée).

بيْد أنَّ تأكيد وُجود مرحلة انسِلاخ لُغَويّ تحدُث بين مرحلة الفهم و مرحلة إعادة التَّعبير قلَّما يكُون مَقْبُولاً، فالمعنى الذي يتمُّ تحريرُهُ من ألْفاظِهِ الأصْليَّة يتأرجح بين لُغَتَيْن وهذا يُماثِل، إلى حدٍّ ما، حالة الشَّخص الجالِس بين كُرسِيَّيْن. وعَلَيْه، كيف نتصوَّر عملية انسِلاخ لُغَويّ، تكون مَقصودة و تتمُّ بعد الفهم؟ ربما يبدو من المنطق اعتبار أنَّ الحُصول على المعنى، الذي يتطلَّب عمليات توْثيق مُستمرَّة، يتمُّ حقًّا أثناء مرحلة الفهم لا بَعْدَها.

و قد أدَّى هذا النَّقْد لِمرحلة الانسِلاخ اللُّغَويّ إلى تَطوُّر تيَّارات نظريَّة تُحاول الذَّهاب أبْعَد لِتوْضيح العمليَّة. لذلك ينبغي هنا أيضًا التحدُّث عن النظريات التَّأويلية بصيغة الجمع لأنَّه بعْد نُسخة "سيليسكوفيتش" الأوَّليَّة، يُمكن اقتراح نُسخة تقدُّمية أثَّرتْ عليها العلوم الإدْراكية بقُوَّة. فَمَثَلاً و في البداية، يَطيبُ لي أنْ أَضَعَ للعملية التَّرجمية مُخطَّطًا ينقسم إلى مرْحَلَتيْن: مرحلة فَهْم، تتجسَّد في تشكُّل تصوُّرات ذِهنية، تَليها مرحلة إعادة تعبير. و هكذا فالترجمة فَهْم مِن أجل الإفهام. أوَّلاً، و بكُلِّ تَحَفُّظٍ إزاء النظريات اللِّسانية للترجمة ثُمَّ إزاء النُّسخة الأوَّليَّة للنَّظرية التأْويلية، أقترحُ أنْ يتَّخِذ المسار المُتَّبَع لإنجاز ترجمة، باعتبارها عملية تواصُل ما بين لسانية وما بين ثقافية، شكل سلسلة اتخاذ قَرارات بِحيث تتَسلسل القَرارات طوال العملية الترجمية وتكون قرارات مَشْعُور بِها جُزئِيًّا (subconscientes) و قَرارات مَقصودَة. و بِصِفة تلقائية، لَنْ يُولِيَ المُتَرجِم الاهتمام نفسه لِجميع الوَحَدات

المَعجَمية التي تُكوِّن نصّ المَتْن. فَهُوَ يُقرِّرُ نوعًا مَا حوْل مَا يَبْدُو لَه أساسيّ و حوْل مَا سيشُدُّ انتباهَهُ و حوْل مَا سيُركِّز عليْه لِضبط المعنى. و تميلُ القرارات المَشعور بها جُزئيًّا إلى الحُدوث أثناء مرحلة الفهْم، في حين تُتَّخَذ القَرارات المَقصودَة أثناء مرحلة إعادة التَّعبير عندما يَجب على المُتَرجِم أنْ يَختار بيْن الصِّيَغ المُمكنة لإنْتاج الترجمة الأكثر فعالية. إذ يَبدُو حقًّا أنّ المُكافِئات اللِّسانيَّة التي تَمَّتْ فَهرَسَتُها حسب الأُصُول، حتَّى في أَحْسن القواميس، لا تفرض نفسها بالضَّرورة على المُتَرجم وأنّ الكلمة الأخيرة تعود لِلمُتَرجِم الذي يُقرِّر بنفسه أنْ يَتبنّى مُكافئًا مَوْجودًا مِن قبْل، أو على العكس، أنْ يَخلِق مُكافِئًا. و بهذا الصَّدد، دَحْض المبدأ التَّعليمي الذي يقضي بِحِساب المعنى (وفقًا للنَّظريات اللِّسانية) مِن أجْل تبنِّي المبدَأ الاستِدلالي لِبناء المعنى (وِفقًا للنَّظريات التَّأويلية) هو بحدّ ذاته مرحلة أولى لِتطوُّر التفكير التَّرجمي. فالمُقاربة الاستدلالية تشرح مَظَاهر المعنى بمبادئ براغماتية. و بناءُ المعنى ليس نِتاج دلالة الكلمات التي تُكوِّن المَلفوظ، بل نتيجة عملية استدلالية، أي بُرهان منطقي، يستغلُّ في، الوقت نفسه، معلومات لِسانية و معلومات غير لِسانية مثل معرفة الموضوع المُعالَج و العوامِل الظَّرفية للتَّواصُل و المُكوِّنات الشِّبه لِسانيَّة للنص. فتكون الآلية الذِّهنية التي يُطبِّقُها المُتَرجِم مِن نوْع: إِذَا ... فإنَّ، و هو نموذج المُحرِّك الاستدلالي المُعتَمَد في الذَّكاء الاصطناعي. و تستلزِم هذه العملية استِحضار الذّاكرة لِمعارِف خارجة عن النص. فالاستدلالات(les inférences) هي معلومات مُنَشَّطَة نوعًا ما بالرَّغم مِن أنَّها لا تُذكَر بِوُضوح. و عندما يحدُث انصهار الاستدلالات المُنتَجَة مع المعلومات الواضحة، فهذا يُؤدِّي إلى البِناء المُنَظَّم للمعنى. إنَّ الفكرة التي تقدَّمَتْ بها حدسيًّا النظريات التأويلية للتَّرجمة هي أنَّ بناء المعنى يتمُّ بحَشْد و انصهار المعارف اللِّسانية التي تُنشِّطُها قراءة نص المَتْن مع المعارف المَوْسوعية التي سَبَق للمُتَرجِم اكتسابها و تخزينها في الذّاكرة قَصد الوُصول إلى كُلٍّ مُتَماسِك.

غير أنَّه في المُمارَسة المِهَنيَّة المَعروفة، لا يَتَحقَّق هذا الانصهار إِثْرَ حِساب طَويل، إنَّما بصفة تلقائية تَضْمَن فَهْم المَعْنى وِفْق مبْدَأ الحَصَافَة (Sperber et Wilson 1986)

فالمعنى الشَّامِل الأكثر احتِمالاً و حَصَافَةً هو ذلك الذي يَنْتُج عن مُعالَجة المَعلومةبأَقلّ تكلفَة مَعْرِفِيَّة. هكذا يَفرِض المعنى المُدرَك نفسه على الذِّهن ويتجلَّى كصورة بارزة على خلْفيَّة. و في هذا الصَّدد، يُمكننا الاستناد إلى نظرية الجِيسْتَالْتْ (la théorie de la Gestalt) إِذْ هيَ، عَدَا عن ذلك، الأساس النَّظري الوحيد الذي يُعْقَل لتفسير أداء تُرجُمان المُؤتمرات في التَّرجمة الفوْرية بحيث يقوم نوْعًا مَا بالتزلُّج على موْجة المَعنى.

ولِغايةٍ بيداغوجية ظاهِرة، لاسيما في إطار تكوين مُترجمِين مِهَنيِّين مُستقبَلِيِّين، مِن المُهمِّ إِظْهار بِناء المَعنى وِفق عَملية استدلالية. إِنَّ فَعالية البحث الوثائقي (La recherche documentaire) (للقيام بِترجمة أمْر لا غُبار عليه، لكن الحِذق يكمُن في استغلال المعلومات المُحَصَّلَة بِنَباهَة و حَشدِها على شكل مَعارِف للتمكُّن مِن تشغيل المُحرِّك الاستدلالي. وفي هذا الإطار، يفرِض الاستدلال المَنطَقي نفسه كَأُولى أَداة لِلْمُتَرجِم حيثُ يشهدُ تطويرُ أَمثِلَةٍ واقعيةٍ عن فائدة الإجراء المُوَجَّه نحو التسلسُل الصَّارِم للاقتِراحات بِحُكم المَنطِق (Durieux 1990) . و في الواقع، يَدِينُ هذا السُّلُوك بالكثير لِنظرية جون دُوِي للتحرِّي (Dewey 1938) التي تُفصِّل خمس مراحل مُتعاقِبَة: « (i) الصُّعوبة المُلاقاة، (ii) موْقِعها و تعريفها، (iii) اقتراح حلّ مُمكن، (iv) تنمية البُرهان على احتمالات الاقتراح، (v) تعزيز المُلاحظة و التجريب اللَّذَيْن يُؤدِّيان إلى قَبول الاقتِراح أو رَفْضه، هكذا يكون التَّصديق أو الإنكار» Dewey 1991 72:)). و إنَّ تطبيق هذه النَّظريَّة على العمليَّة التَّرجمية حصيف جدًّا لأنَّ تِبْيان استدلالٍ منطقيٍّ يُؤدي إلى اتِّخاذ قرارٍ يُتيحُ التخلُّص مِن الانسِلاخ اللُّغَويّ كَمَفْهُومٍ غامضٍ و كذا مُحاوَلة توضيح عملية الفهْم.

بَيْد أنَّ التفكير، على مُستَوى هذا الطَّوْر، يبقى راسِخًا في ميزانٍ صرْفي شكْلي، أكِيد مُغايِر لذلك المَعرُوف في النظريات اللِّسانية للتَّرجمة، و لكنه يَنصاعُ لِعملية عقلانية مَحْضة تَمْتَثِلُ لِقواعد استِدلالية مُطبَّقَة بِصَرامة.

و الحالُ أنَّ الاهتمام بِعَمَل العقل البَشَري يستلزِم إِدْخال مبدأ العقلانية المَحدودة (de rationalité limitée le principe) الذي سيُشكِّل المَعلَم الثَّالِث. وبالفعل،

فإنَّ الترجمة هي سلسلة اتخاذ قرارات، لكن هذه القرارات ليستْ نتيجة عملية عقلانية بحْتَة تستَدعي استدلالاً مَبنِيًّا على قوَاعِد دقيقة. و بهذا المَنْظور، ثمَّة تحفُّظيْن: أوَّلاً، يبدُو حصيفًا، بالنسبة للقرارات المُتَسلسِلَة فقط، إضافة مُعالَجَة مُوَازِية يقوم بها العقل البشري، ثمّ إلى جانب جَبَرُوت الاستدلال المنطقي الذي يُمارِس استِقطَابًا قويًّا كَمفهومٍ لِعقلانية مُثْلَى، ينبغي فتْح مجالٍ أمام الانتباه الانتِقَائِيّ (l'attention sélective) الذي يُسيِّرُهُ الإحساس و يُؤثِّر على الاعتقادات و المُيُولات فيَلعب دورًا أساسيا في اتخاذ القَرار.

و لا شكَّ أنَّ الميدان الاقتِصادي كان أوَّل ما ظهَر فيه مفهوم العَقلانية المَحدُودَة (Simon 1959) الذي جاءَ لِيُعيد النَّظَر في مبدأ بايز(Bayes) للاستدلال الأَمْثَل. و هكذا فالمُستَهلك مثلاً لا يشتري منتُوجًا إثْر تحليل عقلاني مُطلَق للوضْع، إنما تأثُّرًا بمُيولاته و اعتقاداته. و إنَّ قِيَمَهُ الشخصية هي التي ستُوجِّهُ تأْويلَهُ لِخواص مَنْتُوج مَا أو خدمة يُشَكِّلان موضوع تحليله ، أَلاَ نتحدَّث عن شراءٍ " تحت تأثير انفعال " ؟ هذه الملاحظة قابلة تمامًا للتَّطبيق على العملية التَّرجمية، ليس فقط لأنَّ المعارف التي يُحَصِّلُها المُترجِم تُوَجِّهُهُ في الوُصول إلى معنى فَحْوى نص المَتْن، بل كذلك لأنَّ نظامَ قِيَمِه بِكامِلِهِ يتدخَّل في عملية التَّأويل مِن أجل الفَهْم و يُساهم في توجيهِها.

و فضلاً عن ذلك، فإنَّ إجراء المُترجِم يُسيِّرُهُ الانتباه. والواقع أنَّ الانتباه هو وظيفة مَعْرِفِيَّة مُعقَّدَة تتضمَّن عملية انتقاء. و الحال أنَّه إذا وُجِد الانتقاء، وُجِدَ القَرار. وعليه، فالقَرارات التي تتسَلْسل لِتُضْفِيَ العملية التَّرجمية جَوْهَرَها و تسمح حُدُوثها لا تقوم فقط على أساس تحليلٍ عقلانيٍّ بَحْتٍ، إنَّما تتأثَّر بِمُحيطٍ شخصيٍّ خاضعٍ للقِيَم و المِزاج. و يقترح كَامُو (Camus 1996) ، وهو يُمثِّل الانتباه كَمجموعة من النشاطات الإدراكية المُرتَبطة بالطريقة التي يُعالِج بها النِّظام المَعرِفي المَعلُومة، إقامة فَرْق بين كيْفِيَّتَيْن في المُعالَجَة: العمليات الآلية السريعة المُتَوازية و المَشْعُور بها جُزئيًّا مِن جهة، و العمليات المُسَيْطَر عليها، البطيئة و المُتسلسلة مِن جهة أُخرى. يتمُّ استدعاء كُلّ مِن هاتَيْن الكيْفِيتيْن في العملية التَّرجمية، الأولى، عندما لا يُواجه المُترجِم صُعوبة فيقوم

بالترجمة بصفة سلِسَة حيث يجدُ فِعلاً المُكافِئات المُناسبة تلقائيًّا، والثانية، عندما لا يكون الفهم أو التَّعبير عفْوِيَّيْن و وَجَبَ على المُترجِم أنْ يقوم ببحثٍ أو بتفكير منهجيٍّ لِحلِّ المُشكل الذي يعترضُهُ.

و لا يقتصِر حلُّ المُشكِلات على عمليات منطقية، بل يستدعي بُرهانًا على شكل اقتراحات مَبْنِيَّةٍ على نماذج ذِهْنيـــة (Johnson-Laird 1993). إنَّ نظرية النماذج الذهنية هذه (la théorie des modèles mentaux)، تُعيد، هي الأُخرى، النَّظَر في نجاعَة الاستدلال كَطريقة في البُرهان مِن شأنها التوصُّل إلى قَرار. و هي، في الواقع تفصِلُ الاستدلال عَن الاستنتاج و تُسنِدُهُ إلى الاستقراء في حُدود أيِّ بُرهان استقرائيٍّ. فالمنطق لا يستطيع تحديد الحلّ الوحيد الذي يقبَلُهُ مُشكِلٌ ضِمْن التنوُّع اللاَّنِهائي للحلول المُمكِنة. علاوةً على ذلك، فالكائن البشري لا يلِدُ عالِمًا بالمنطق، إنه يرتكب أخطاءً والمُترجم كذلك لأنه ليس بِمُقرِّرٍ عقلانيٍّ مِثالِيٍّ.

و بِغَرَض تَدارُك هذا النُّقص، تُثبتُ التجربة أنَّ استعمال رُسومات بيانية مُساعِد مذهِلٌ في اتخاذ القَرار، مِمَّا يُؤكِّد فكرة وُجُود عملية فعَّالَة أُخرى عَدا المُحرِّك الاستدلالي وَحْدَه.

و بالفعل، طبيعة البُرهان المَنطقي مُتسلسلة وخطِّيّة و تعاقُبيّة في حين أنَّ الرسم البياني مُتعلِّقٌ بتَحييزٍ ناجِمٍ عن مُعالَجة مُتوازية، إذْ تمَّ الإثبات على أنَّ التَّمثيل الحَيِّزي لهُ القُدرَةَ على مُساعدة الذّاكِرَة و دَعْمِ اتِّخاذ القرار و تسهيل التّفكير، هذا هو حال الشَّكل المَعروف جِدًّا في الهندسة.

و مع نظريَّات التَّقويم و التَّقييم لِماجْدَة أرْنُولْدْ (Magda Arnold 1960) و بعدَها لاَزَارُوسْ (Lazarus 2001)، يُفتَحُ سبيلٌ إضافيٌّ بحيث، في هذا المَنْظُور وأثناء المُدَاوَلَة التي تسبِقُ القَرار، يقوم لكائن البَشَري بتَقْوِيم و تَقْييم العناصِر التي هي على المِحكِّ. و نشاط التَّقدير المَعْرِفيّ هذا يسْبِقُ الحُكم و بالتّالي يسبِقُ اتِّخاذ القَرار ويكون أساسيًّا في ظُهور عاطِفة. فَقبل أنْ تكون ردَّة الفِعل بصِفة عاطفيَّة، يأخُذُ الفرد بعين الاعتبار، مُكوِّنات ابتِدائية كالخَصافة و التَّرابُط المَنطِقيّ بالنِّسبة للهدَف المَنشُود مِن جهة، و مُكوِّنات ثانوية كالتَّأنيب أو المُوافَقة مِن جهة أُخرى.

والفكرة التي تقول بوُجود آليات تقييميَّة و تقديريَّة تُسيْطِرُ على العواطِف قد أثارَتْ نِقاشًا واسِعًا. و بعبارة أُخرى، ففي التسلسُل الزَّمني، تتدخَّل العواطِف في امتداد الإدراك و التَّقدير مُحدِّدَةً بذلك القَرار. و عليه، ليستْ العاطفة ردَّة فِعل فحسب، بل تحضيرٌ للتحرُّك (Berthoz 2003).

هذه هي أيضًا وُجهة نَظَر دَامَازْيُو(Damasio 1995) الذي يُؤكِّد أنَّ العاطفة ليستْ ردَّة فِعل إنَّمَا هي أداة لِتحضير الفِعل. فالعاطفة أداة للقَرار و أداة قويَّة يتنبَّأ بها الدِّماغ الذي يستَبِقُ و يُبرمِجُ نَواياهُ. في الحقيقة، عندما تُضفَى أوزانٌ مُختلفة على شتى الخَيارات المُمكنة، يتبيَّن أنَّ العواطف ضرورية لاتِّخاذ القرارات وتنفيذ تصرُّفات عقلانية.

و إذْ تُحرِّك العاطفة آليات الانتِباه الانتِقائيّ، فهي لا تُؤدِّي إلى انحراف الواقع المُدرَك بل إلى انتقاء الأشياء المُدرَكَة أو المُهمَلَة في العالَم و بذلك تقوم بتعديل عميق لِعلاقة الذَّاكرة بتصوُّر الحاضِر. وهُنا نجد شيئًا مِن نظرية سارْتْرْ لِلعواطف(Sartre 1938) التي تقول: « الوعيُ العاطِفيُّ هو أوَّلاً وعيٌ بالعالَم ». و تُعرَّف العاطفة بأنَّها " تحويلٌ للعالَم "، و بالتالي فهي ستُحوِّلُهُ لِيتمَّ النَّظَر إليْه بصفة مقبُولَة. و العاطفة كدليل للفِعل تكون إذًا مُرشِّحًا مُميِّزًا. « هذه الآلِيةُ أساسيَّة للقَرار بما أنَّ قَرَاراتنا تتعلَّق كثيرًا بما نُدركُهُ و بما يُعَايِرُهُ دِماغُنا في العالَم و بالكيفيَّة التي يُقيم بها علاقة بين الأشياء المُدرَكَة و الماضي» (Berthoz 2003 : 347).

و باختصار، يُمكِن لِلمُخطَّط أدْناهُ أنْ يحلَّ بنَفع مَحلَّ المُخطَّطات المَعرُوفة التي تقُومُ على مَرحلَتَيْن أو ثلاث و التي يُفتَرَض بها أنْ تُوَضِّح العمليَّة التَّرجميَّة.

مُترجِم
↓
إدراك
↓
تَقييم و تَقويم
↓
عاطِفة
↓
انتِباه انتِقائيّ
↓
مُعالَجَة المعلومة
↓
قَرَار

و في الخِتام، يَهدف هذا العَرض إلى إبراز تطوُّر و ديناميَّة التفكير التَّرجميّ الذي يميل إلى الابتِعاد مِن الإلْزامات

اللِّسانية الصَّارِمة لِيَندَرِج ضِمن ميزان صرْفيٍّ مُعقَّد آخذاً بعين الاعتبار العامِل العاطِفيّ في التَّواصُل ما بين اللِّسانيّ و ما بين الثَّقافيّ. و إنَّ المَعالِم المُشَار إليْها هنا تُظهِر في الواقِع انقطاعات عُلُوميَّة حقيقيَّة. أوَّلاً، بين النَّظريات اللِّسانية والنَّظريات التَّأويليَّة حيث يتَمَحْوَرُ الانقطاع حول طبيعة المعنى واستقلاليَّته بالنِّسبة إلى دلالات الوَحَدات اللِّسانيَّة، ثمَّ بين النُّسخة الأوّلية والنُّسخة التقدُّمية للنظرية التأويليَّة للتّرجمة حيث يتَمَحْوَرُ الانقطاع حول المفهوم الرَّئيس للانسِلاخ اللُّغَويّ. و يُؤدِّي نقد عمليَّة الانسِلاخ اللُّغَويّ إلى دَحْض هذا المفهوم و تفسير بناء المعنى بآلِيَّة استدلالية تُنفِّذ بُرهانًا منطِقيًّا صارِمًا. و أخيرًا يظهر، إثْر الانقطاع عن هذا الميزان الصَّرْفيّ الشَّكليّ و على دَرْبِ العُلوم الإدراكيَّة، إطار نظريّ ينكُر جَبَرُوت العقل و يُدرِجُ العاطِفة في كُلِّ نشاطٍ مَعرِفيٍّ، و قد يُؤدِّي هذا التفتُّح إلى صياغة نظريَّة جديدة للتَّرجمة تتمَحْوَرُ حَوْل القَرار.

المراجع:

Arnold, M. (1960): Emotion and Personnality 1, Psychological Aspects, New York, Columbia University Press.

Berthoz, A. (2003) : La décision, Paris, Odile Jacob.

Camus, J-F. (1996) : La psychologie cognitive de l?attention, Paris, Armand Colin.

Damasio, A. (1995) : L?erreur de Descartes, Paris, Odile Jacob.

Dewey, J. (1938) : Logic : The Theory of Enquiry, New York, Henry Holt.

Dewey, J. (1991) : How We Think, New York, Prometheus Books.

Durieux, Ch. (1990) : » Le raisonnement logique : premier outil du traducteur «, in Études traductologiques, Minard.

Durieux, Ch. (1997) : » Traduction et linguistique textuelle «, Terminologie et Traduction 1, Commission des Communautés européennes, Bruxelles, p. 48-62.

Durieux, Ch. (2003) : » La traduction, exemple d?application de la prise de décisions sous contraintes «, in Les décisions sous contraintes, Presses Universitaires de Caen.

Durieux, Ch. (2005) : » La traduction : illustration d?un processus complexe «, in Cadet, B. (dir.) Complexité, Presses Universitaires de Caen.

Gigerenzer, G et S. Stelten (2001) : Bounded Rationality. The Adaptive Toolbox, Cambridge, MIT Press.

Johnson-Laird, P. et E. Shafir (1993) : ?The Interaction between Reasoning and Decision Making : An Introduction?, Cognition 49, p. 1-9.

Johnson-Laird, P. (2001) : ?Mental Models and Deduction?, Trends in Cognitive Science 5-1, p. 434-442.

Lazarus, R. (2001) : ?Relational Meaning and Discrete Emotions?, in Appraisal Processes in Emotion, Oxford, Oxford University Press.

Sartre, J.-P. (1938) : Esquisse d?une théorie des émotions, Paris, Hermann.

Simon, H. (1959) : ?Theories of Decision Making in Economics and Behavioural Science?, American Economic Review 49, p. 253-280.

Sperber, D. and D. Wilson (1986) : Relevance, Communication and Cognition, Oxford, Basil Blackwell.

المقال الأصلي للدّراسة:

» L'opération traduisante entre raison et émotion «
Christine DURIEUX in : Meta : journal des traducteurs / Meta : Translators? Journal,
vol.52, n?1, 2007, pp.48-55.

الأثـــر المـــادي للذاكـــرة في الدمـــاغ

سلفي غريسزو

ترجمة: د.محمد قماري

تقانة النانو:

عالـــم النانـــو: مفاتيـــح للفهـــم

إعداد: فبريس امبريالي

ترجمة: أ.موسى زمولي (1)

الأثـــر المـــادي للذاكـــرة في الدمـــاغ

سلفي غريسزو

ترجمة: د.محمد قماري

الأمر يتعلق بتجربة فذة، سمحت بإظهار أن الدماغ يقوم بتشفير ذكرى معينة، في عدد من الخلايا العصبية محدد بدقة.

''إننـا واثـقـون إذن، بـأن في الـدمـاغ مسـلك مـادي لـلذاكـرة''، يـؤكـد سيرج لاروش (Serge Laroche)، مـــن مخبر البَيُولُوجْيا العَصَبِيَّة للتَعَلُّم والذاكرة والاتصـال مـن جامعـة باريس جنـوب Paris -Sud، هذه النـتـائـج جاءت تتويجا لمجهـود فـريـق دولي مـن اختـصـاصـات متعددة ، وبتنسيق من شينا جوسلين Sheena Josselyne مـن جـامـعـة تورنتو Torronto [1].

''لحد السـاعـة لـديـنـا نـظـريـات وتصـورات ذات صـلـة بموضـوع الأثـر المادي للذاكرة، ولكن ليس لدينا دليل صريح'' يضيف سيرج لاروش. ومنذ سنوات 1940 ومع ظهور أعمال عالم النفس الكندي دونالد هيب Hebbe Donald نـعـرف أن الـذكـريـات تشـفـر في دمـاغـنـا عـلـى هيئـة مـوزعـة داخـل شـبـكـة مـن الخلايـا الـعـصـبـيـة، ومـع نـهـايـة سـنـوات 1950 ظهر الدليل بأن مناطق محددة في الدماغ لها دور المفتاح في عملية الحفظ Mémorisationوبـالأخص في الـتـخـزيـن المؤقت Court terme للذكريات، ومن هذه الـبـنـى الـدمـاغـيـة مـنـطـقـة الحصين Hippocame التي تقع في الجزء الداخلي من الفص الجداري، حيث قوة الربط بين الخلايا العصبية تتغير بسرعة (وهو ما يمكن وصـفـه ب''المرونـة المَشْبَكِيّة'')، وتَمَّ تتوِّيج اكتشاف هـــذه الظاهـــرة بـتـحـصـل عـلـمـاء الـبَـيُـولُـوجْيا العَصَبِيَّة اريك كـــانـــدل Eric Kandel وارفيد

كارلوسن Arvid Carisson وبول غرينغارد Paul Greengard على جائزة نوبل لعام 2000: والظاهرة تتمثل في تسهيل التخزين السريع للمعلومات دون أن تتيح استقرارها الدائم.

لقد تطلب الأمر سنوات إضافية من البحث لفهم أن مسارات الحفظ الدائم تستدعي حوارا بين الحصين والمناطق القشرية في الدماغ.

لكن هل يمكن، على وجه الدقة، تحديد معلومة محزنة في الذاكرة الدائمة؟

منذ سنة 1990 ومع تطور التصوير الطبي للدماغ، بدأ الأمل يكبر من أن هذا الحلم القديم أصبح في متناول المختصين، لكن بمقاربة مغايرة تماما استطعنا أن نصل إلى الهدف المنشود.

''كنا نسعى إلى وضع الأصبع على الطريق المادي (الفيزيائي)، العصبي للذاكرة، لأجل ذلك اخترنا الطريقة الأسهل: إلغاؤها''، يوضح برينو بونتنبي Paul Botenpi، من مركز العلوم العصبية التكاملية والمعرفية بمدينة بوردو، الذي قام بتنسيق الدراسة في شقها المتصل بـ''التصوير الطبي الدماغي''، وفعلا، استطاع أن يبرهن بالتجريب، وللمرة الأولى، أنه باستطاعتنا أن نحدد مسبقا شبكة من الخلايا العصبية، قد تكون هي الأثر في حفظ الذكريات، ثم نعمل على محو هذا الأثر بقتل الخلايا المعنية. والذاكرة الدائمة، وعلى وجه أخص ذاكرة الخوف مشفرة بشكل جيِّد بدارة عصبونية فزيائية.

نسيان المؤقت

استند علماء الأحياء (البيولوجيون) على دراستين نشرتا سنة 2004 و2007 الدراسة الأولى بإشراف برينو بونتنبي، وفيها استطاع فريق العمل أن يجعل من فئران المخبر مصابة بنسيان مؤقت (عابر) [2]، لأجل ذلك عمد الباحثون إلى حقن مادة في بعض المناطق القشرية من دماغ القوارض، والمعاينة باختبار صُمِّمَ لهذا الغرض، بأنَّ هذه المادة تزيل عندها الذكريات القديمة. لكن كانت هذه التجربة بمثابة البرهان المباشر عن الدور الوظيفي لقشرة الدماغ في استرجاع الذاكرة الدائمة. ''هذه التجربة وعلى خلاف التجارب التي تمَّ فيها إحداث آفات بطريقة صناعية بقشرة الدماغ، ففي هذه التجربة كان الأثر مؤقتا. لقد أثبتت

الاختبارات أنه ليس ثمَّة إعادة تنظيم للخلايا العصبية من أجل تشفير الذكريات، بما في ذلك شديدة القدم منها" يوضح برينو بونتنبي.

من هنا نشأت فكرة اختيار أثر (مسلك) للذاكرة، ضمن دارة عصبية ثم نعمل على تخريبه، إنَّ القضية ببساطة تعني محو ذكرى تمَّ تحديدها مسبقا. "وفي سنة 2004 طلبنا من شينا جوسلين Sheena Josselyne وهي مختصة في البَيُولُوجْيا الجُزَيئِيَّة Biologiste moléculaire، أن تفكر في بناء جينِيٍّ Génétique يسمح بالتعرف على شبكات عَصَبونِيّة Neuronaux خاصة بالذاكرة. وبرقت في ذهنها هذه الفكرة الفريدة بأن قامت بإعطاء أولوية لبعض الخلايا العصبية لتكون أكثر فعالية في الاحتفاظ بذكرى".

في تلك الأثناء كانت شينا جوسلين تعمل على عامل يقوي الذاكرة اسمه CERB، ويسهل مرونة تشابك الخلايا ويعزز قدرة الذاكرة الدائمة والذاكرة المؤقتة، وقامت بصناعة فيروس ينفذ داخل بنية الخلايا العصبية ويقوم بإفراز العامل CERB. وتبين أن الفئران التي تم حقنها أصبحت لديها ذاكرة متفوقة!.

وبعد إضافة بروتين مضيء للفيروس، أمكن للبيولوجيين حساب الخلايا العصبية التي دخلها الفيروس، واستطاعوا أيضا أن يتحققوا من أنها المسؤولة عن تحسن أداء الذاكرة: لقد أبدت تلك الخلايا نشاطا أكبر عند ما يتم وضع الفئران أمام نشاطات تتطلب تشغيل الذاكرة[3].

قاتل العصبونات

كان يجب إيجاد وسيلة لقتل الخلايا العصبية (العصبونات) التي أظهرت إفراز العامل CERB "وهنا أيضا أبدت شينا مقدرة على الإبداع، فتصورت ثم صنعت بُنْيَّة جِينيَّة تضطر أيضا الخلايا العصبية التي أظهرت إفراز العامل CERB أن تظهر على سطح مستقبلات سمين Toxine الخناق Diphtérique

وحين نقوم بحقن القوارض بعد ذلك بهذا السمين، وهي في الأصل مقاومة له، فإنه يرتبط بالمستقبلات، وتدخل حينها العصبونات بكيفية خاصة في برنامج موت خلوي.

لقد استطاع علماء البيولوجيا العصبية وبأيديهم هاتان الوسيلتان، أن يتخلصوا بكيفية انتقائية من الخلايا العصبية الأكثر

نشاطا في مسار (الذاكرة)، وتمت التجربة على الفئران. وفي البداية تم إخضاعها لصدمة كهربائية بعد سماعها صوتا، وبالطبع فإن الفئران تربط بين الصوت والصدمة الكهربائية. وعند سماع الصوت الثاني فإنها لا تتحرك لبعض الثواني، وهي علامة على الخوف، ودرجة عدم حركة الفأر تطرد مع قوة ذاكرته.

لمَ وقع اختيار الباحثين على هذا الاختبار؟ ببساطة لأنه يضع منطقة صغيرة في الدماغ معروفة بمشاركتها في مشاعر الخوف والعواطف:اللَوزَة Amydgalde ''في هذه المنطقة قمنا بحقن الفيروس قبل التجربة، والنتيجة أن حوالي 20% من المئة من الخلايا العصبية للوزة، أي 10 آلاف خلية تقريبا تم تحويرها'' يشرح برينو بوتنبي. بعد ذلك قمنا بتدريب الحيوانات على الاختبار صوت/ صعق كهربائي، وقمنا باختبارهم مجددا بعد ذلك بيوم للتأكد من أن ذاكرتهم ما تزال تشتغل وأن توقفهم عن الحركة يتم فعلا بعد سماع الصوت، وبعدئذ قمنا بحقن السمين لمجموعة منهم، ومن الغد أعدنا اختبار الحيوانات من جديد. والنتيجة: الحيوانات التي حقنت بالسمين لم تبد أي إشارة تدل على الخوف عند سماع الصوت. لقد محونا أثر الخوف الذي صنعناه من الذاكرة''.

وللتأكد من خلو النتائج من اعوجاج يكون دب إليها بسبب ضعف الأثر في الذاكرة، أعدنا التجربة نفسها لكن قمنا بإضافة صدمتين كهربائيتين للصوت ذاته، وهنا أيضا لاحظنا غياب الأثر في الذاكرة بعد حقن السمين عند القوارض. ويظهر جليا أن النتيجة مستقلة عن مدى ''قوة'' التذكار.

شبكة مختصة

هل التذكار مختص بالشبكة التي أظهرت إفراز مادة BERC على وجه التحديد؟ والجواب بنعم، حسب ما أظهرته دراسة أخرى، حيث لم تظهر الفيروسات التي حقنت للقوارض زيادة في مادة BREC، ولكن حساسية لسمين الخناق. إذن الخلايا العصبية التي قتلت بفعل هذا الأخير لم تكن مختصة بذاكرة الخوف المشتركة بحدوث الصوت. والنتيجة: لم يحدث أي اضطراب بالذاكرة، وبالتالي ففي التجربة الأولى، فإن الشبكة العصبية التي أظهرت BERC هي فعلا الحامل لأثر الذكرى.

هل يتمكن هؤلاء الباحثون من تطبيق التجربة على الإنسان، مثلا بتمكنهم من محو بعض الذكريات عند أشخاص يعانون ضغطا عقب تعرضهم لصدمات؟ حول هذا السؤال يجيب برينو بوتنبي دون تردد: لا، لأننا لا نستطيع أبدا تدمير شبكة خلايا عصبية منتخبة في دماغ الإنسان تكون قد احتفظت في الماضي بذكريات مؤلمة (دون الحديث أصلا عن قضايا أخلاقية ذات صلة بهذه العملية). بالمقابل فإن هذه التجربة تفتح المجال أمام تحريات أخرى داخل الدماغ، بحيث يمكن تعميم النتيجة على أنماط أخرى من الذاكرة، كذاكرة المجال (المكان). إن أعمالا قد بدأت فعلا في مخبر برينو بوتنبي قصد انتقاء شبكات عصبية في منطقة الحصين Hippocame وقشرة الدماغ.

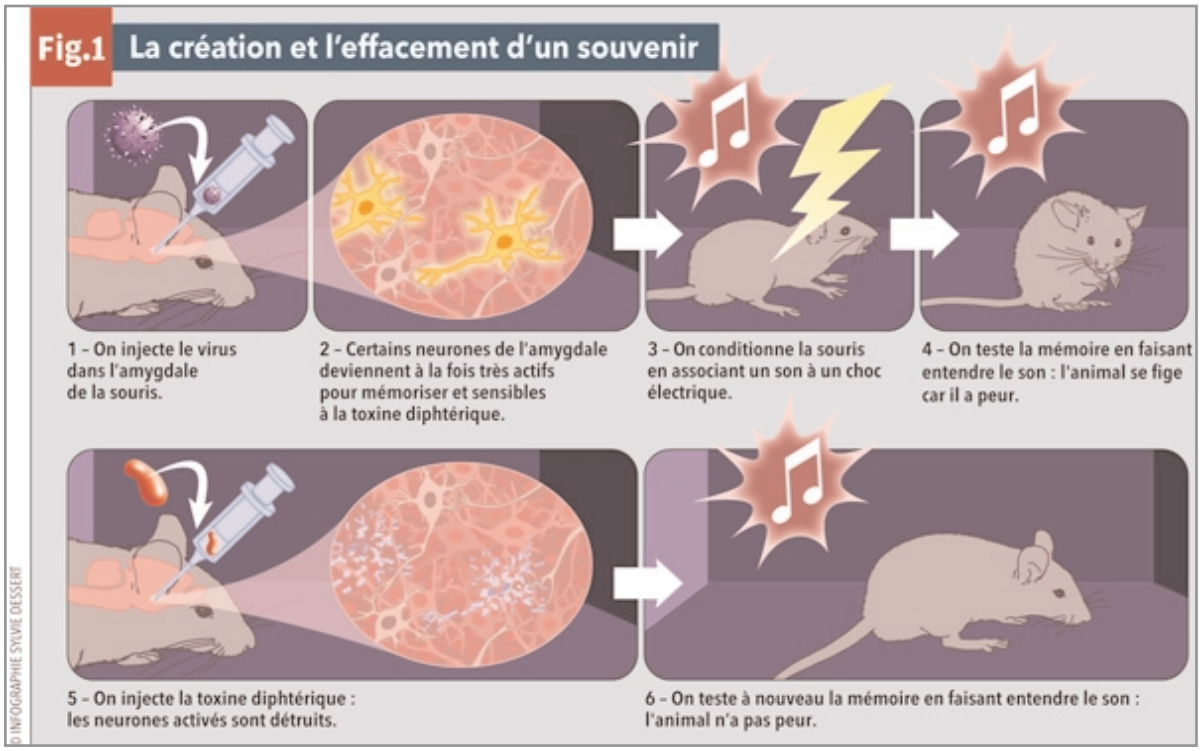

التخلص من الضغط بعد التعرض لصدمة؟

بعض الفرق في العالم تعمل على إمكانية التخلص عند الإنسان من ذاكرة الذكريات المؤلمة، منها كريم نادر وزملاؤه من جامعة جيل بمونريال، يدرسون إمكانية التخلص من هذا النوع من الذكريات في مرحلة إعادة الاسْتِحْصاف reconsolidation. ويرتكزون على مبدأ أن استرجاع ذكرى معينة، أيا كانت، يجعلها مجددا غير ثابتة. وهنا بعد استذكار ذكرى مؤلمة، نقوم بحقن الشخص بمثبط تَخْليق البروت inhibiteur de la synthèse prothéique مثلا مادة بروبرانولول propranolol، فنزيل أثر تلك الذكرى من الذاكرة [1]. وفريق آخر فرنسي يعمل بمدينة تولوز مع ضحايا كارثة مصنع FZA، وهنا لا يتم تحديد الخلايا العصبية بل الذكرى نفسها.

نقاط هامة:

- بمساعدة فيروس محور، يمكن تدعيم عمل بعض الخلايا العصبية للذاكرة عند الفئران.

- عند وضع الحيوان في شروط معينة، بحيث يتم الجمع بين صعقة كهربائية وإحداث صوت، فإن ذكرى الخوف المرتبطة بالصوت تثبت على هذه الخلايا العصبية.

- لقد برهنا على أن تدمير هذه الخلايا؛ فإن ذلك يمحو الذكرى.

[1] J.-H. Han et al., Science, ,323 ,2941 .9002

[2] T. Maviel et al., Science, ,503 ,69 .4002

[3] J.-H. Han et al., Science, ,613 ,754 .7002

المقال الأصلي:

مجلة البحث الفرنسية العدد: 437 جانفي 2010.

Une trace physique de la mémoire

N?734 - 10/0102 La Recherche

مصطلحات وردت في النص:

Mémoire à court terme	الذاكرة المؤقتة (قصيرة المدى)
Mémoire à long terme	الذاكرة الدائمة (طويلة المدى)
Neurones	العصبونات (الخلايا العصبية)
Encodage	التشفير
Hippocame	منطقة الحصين في الدماغ
Une trace physique	أثر مادي

تقانة النانو:

عالـــم النانـــو: مفاتيـــح للفهـــم

إعداد: فبريس امبريالي

ترجمة: موسى زمولي (1)

مقدمة (المترجم)

في مقالنا تحت عنوان "مسيرة العلم "مجلة معالم- العدد الرابع ص، 87-96 أشرنا إلى أن العلوم العقلية شهدت، منذ عصر النهضة الأوروبية، نقلات نوعية أدت إلى نعتها بالعلوم العصرية.

ومن بين هذه النقلات الحديثة نخص بالدرس هنا " تقانة النانو" التي بدأت، كما سنرى لاحقا، تطبيقاتها تنتشر في العالم المتقدم وتتسرب لميادين مختلفة.

تُعَرَّف تقانة النانو على أنها تطبيق علمي يخص الدراسة والتعامل مع المادة على مقياس الذرة والجزيء [1]. وبعبارة أخرى هي دراسة وابتكار تقنيات ووسائل جديدة تقاس أبعادها بالنانومتر وهو جزء من الألف من الميكرومتر أي جزء من البليون من المتر (10^{-9} متر). تتعامل التقانة النانوية عادة مع قياسات بين 0,1 إلى 100 نانومتر أي تتعامل مع تجمعات ذرية [2] تتراوح بين خمس ذرات إلى ألف ذرة. وهي أبعاد أقل بكثير من أبعاد البكتيريا والخلية الحية. ولكنها حتى الآن لا تختص بعلم الأحياء بل تهتم أكثـر بخواص المواد.

على هذا المستوى، كما سيأتي ذكره، فتح الباحثون نافذة جديدة على عالَم من الأشياء مماثل للعوالم التي تم اكتشافها عند اختراع المجهر والمنظار الفلكي.

ترجمة النص:

كان ذلك في 29 ديسمبر 1959 بمناسبة الملتقى السنوي للجمعية الأمريكية للفيزياء، عندما ألقى رتشر فاينمان (Richard Feynman)2 محاضرته بعنوان" هناك فضاء شاسع في الأسفل" Bottom There's Plenty of Room at the"). بهذا العنوان المميز طلب العالم الفيزيائي الأمريكي، من أسرة العلماء، التعجيل بالبحث في عالم متناهي الصغر (small infinitesimally) للكائنات. لكن كان علينا أن ننتظر الثمانينات واختراع المجهرين: المجهر النفقي الماسح (Scanning (STM) Tunneling Microscope) و مجهر القوة الذرية (AFM) Microscope Atomic Force لنشهدميلاد عالم النانو (أي مقاسات أحجامها ما بين 1 و 100 نانو متر) وفُتح هذا المجال بالفعل أمام الباحثين (4). وهكذا استطاع العلماء في النهاية النظر لجزيئات المادة (Molécules)، والحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين "دنا" وللشفرة الوراثية (جينوم) ولتركيبة ذرة المادة . " وأصبح ممكنا العمل على هذا المقياس، وكانت من المتطلبات الأساسية النظر إلى هذه المكونات للتعامل معها"، هكذا قال كرسيان جواشيم (Joachim Christian) كيميائي بمركز إعداد ودراسة هياكل المواد (CEMES) للمركز الوطني للبحث العلمي (6). ومع نهاية الثمانينات وبفضل الدقة التامة للأدوات (خاصة باستعمال حِيّل المجهرين (STM وAFM)، استطاع العلماء التعامل مع الذرات واحدة بواحدة. أعطت هذه السيرورة طلقة البداية لعلم النانو، لدراسة الخواص الفيزيائية والكيماوية الأساسية للأشياء بحجم النانو متر. وبالاستعانة تدريجيا بأدوات متطورة، بدأ أخيرا تصميم وصنع أشياء، وهياكل ومواد يتم التعامل معها مع آلات بمقاسات النانومتر.

لكن لماذا كل هذا الإصرار على الغوص للنظر في عمق قلب المادة ؟ "من أجل الخواص الجديدة التي يمكن التعرف عليها على هذا المقاس وهي لا تظهر على مقاسات أكبر" صرح بذلك جان إيف مارزن (Jean-Yves Marzin) فيزيائي ومدير مخبر وحدات الكم الضوئي (الفوتونات) والهياكل النانوية (LPN) بمدينة مركوسيس(Marcoussis) الفرنسية. وفي نفس السياق يرى جيرار بن أسياق(Hérard ben Assiac)، الفيزيائي بمركز CEMESأن تقانة النانو

تسمح بتوفير مسار لاكتشاف " على مقياس أصغر الأشياء المخفية على مقاسات أكبر". وبعبارة أخرى هناك خصائص عديدة لمواد ? بصرية، محفزة، وميكانيكية، ومغناطيسية، وحرارية، وكهربائية- يتعلق ظهور معظمها بمقاييسها.

على مقياس النانومتر تظهر بعض خصائص المواد وأخرى تختفي، بعضها يتحسن كثيرا بينما تتشتت صور البعض الآخر بل تخرج تصرفاتها عن قوانين الفيزياء الكلاسيكية. عندها يلجأ الفيزيائي إلى قوانين الفيزياء الكمية: فعلى سبيل المثال فإن الإلكترونات لا تستمر في الحركة حول جزء غير منقطع من تيار، ولكنها ترحل فرادى، واحدا واحدا. من هنا نستطيع فهم الرهانات العلمية لعلم النانو وفهم تكوين المادة على المقاييس الصغيرة، لنصبح في يوم ما قادرين على التحكم في هذه الخصائص لتصميم أدوات جديدة، ودارات متكاملة وحتى أنظمة كاملة. وتوافقت هذه الرهانات مع رهانات الصناعة.

بدأت في الخمسينات ظاهرة الدارات المتكاملة السليكونية التي أحدثت أهم الثورات التقانية في التاريخ: الميكرو الكترونات. ولحد اليوم لا زالت صناعة الميكرو إلكترونات تتطور وفقا لقوانين مور (More laws) التي تنص على ما يلي:

(1) يتناقص، (في الصناعة، المترجم)، حجم الترانزستور (أداة إلكترونية شبه موصلة) إلى النصف، كل 18 عشر شهر، لتسمح بزيادة كثافة التكامل وأداء الدارات الإلكترونية، و(2) وتتضاعف كلفة التصنيع كل 36 شهر، وعلى هذا المنوال سيلتقي لا محالة تصغير حجم الترانزستورات ونمو كثافتها (بلغت حاليا 130 نانو متر بالنسبة للبنتيوم4) لتتقارب مع عالم عُلوم النانو مما يخلق مشاكل بين المصنعين ومصداقية الناتج. يقوم الباحثون حاليا بتصور طرق لتخطي هذه المشاكل باستكشاف عالم النانو واقتراح تصاميم بديلة لدارات الغد.

غير أن علم النانو وتقانة النانو لا تخدمان فقط علم المايكرو إلكترونات (والحواسيب، المترجم) ولكنها تتعداها لمعظم الفروع العلمية الأخرى (الطب والتقانات الحيوية والكيمياء وعلوم البيئة وغيرها) وكذلك كامل ميدان المواد (المعادن، البترو كيماويات (Polymers)

والمواد الخزفية). " نحن مدانون لتقانات النانو لأنه بفضلها استطاع مخبرنا أن يُنشئ ويَدْرس ذرات اصطناعية أو ما يمكن تسميته بالأشياء النانونية بتصرفات وخصائص محددة،" صرح بذلك ميشال لانو(Michel Lano)، مدير إدارة الرياضيات والمعلوماتية والفيزياء وعلوم الأرض والفلك (MIPPU) بالمجلس الوطني. بالإضافة إلى هذا البحث في الجانب الأساسي، تدير المخابر العديد من التطبيقات الواعدة : تركيبات نانونية لتحسين أداء البوليمار والخزفيات، والأنابيب الكربونية النانونية (شكل 3) وأسلاك سلكونية نانونية (Nanowires Silicon) لعلم الإلكترونيات، وتصنيع أدوية تتفاعل مباشرة مع أهدافها، جزيئات نانونية لاصطياد الملوثات في المياه، وغيرها. بالفعل فإن تقانة النانو تتوسع حيث يتزايد عدد المختبرات في فرنسا وفي العالم مع تكثيف الجهود وتوفير مصادر الاستثمار في هذا الميدان.

ظهر في الأربع سنوات الأخيرة نشاط وتنافس بين الولايات المتحدة، واليابان وأوروبا للتمكن من هذه التقانة. أنفقت حكومة الولايات المتحدة بليون دولار أمريكي لبحوث علوم وتقانة النانو ، وقاربت هذه القيمة في اليابان 850 مليون دولار أمريكي، بينما كان مجموع كل ما أنفقته الحكومات الوطنية بالاتحاد الأوروبي 700 مليون يورو على مؤسساتها البحثية في هذا الميدان . ويبرر هذا الحماس توقع عوائد اقتصادية طائلة. وحسب المؤسسة العلمية الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية، فان سلع الإنتاج والخدمات ذات العلاقة بتقانة النانو ستفتح سوقا قيمتها تريليون دولار في العشر سنوات القادمة.

في أوروبا أصبحت تقانة النانو ضمن أهم أهداف البرنامج الإطار السادس للجنة، والمتعلق بالبحث والتطوير التكنولوجي والمشار إليه برمز:(6PF) وسيستحوذ على 10 % من ميزانية البرنامج. في فرنسا، شرعت وزارة البحث، ومعها في المدة الأخيرة الوكالة الوطنية للبحث، في تنفيذ برنامج تحت عنوان " علوم النانو وتقانات النانو" وأُعطيت للمشروع الأولوية. وحسب ما أوردته برندات بنصود فانسنت (Bernadette Bensaude -Vincent) المتخصصة في تاريخ العلوم، " يفكر المصنعون في إمكانية التخفيض الكبير من حجم المواد الأولية" ينتج

عن ذلك تخفيض سعر الكلفة والتحرر من ضغوط المنتجين. تترجم عملية ''اللامادية'' هذه بخفض في استهلاك الفولاذ والألمنيوم والبلاستيك والانتقال إلى منتج أخف وأقوى. وختمت بنصود فنسنت كلامها قائلة '' ظاهرة تقانة النانو، تصب في هذا الاتجاه''.

مع أن الحكومات واعية للأهمية الإستراتيجية لاستكشاف عالم النانو، فإن الاستثمار في البحث على مستوى المؤسسات العمومية والمساهمة في المشاريع الصناعية لا يزال محتشما. والسبب في ذلك أن هناك بعض التطبيقات لا تزال قادرة على تأدية الطلبات التجارية ومع ذلك نرى دخول مكونات نانوية في لوح التحكم لدى سيارات الشحن لجنرال موتورز ومنتجات تجميلية اعتمدت جزيئات نانوية.

من جهة أخرى هناك حاجز آخر: الأخطار المحتملة من جزيئات النانو. يرى روبرت بلانا (Robert Plana) الباحث في مختبر تحليل و تصميم النظم (LAAS)، إمكانية تخوف المجتمع ورفضه لهذه التقانات. ويرى لانو أنه من المهم التقدم في العمل مع المعرفة التامة لكل الأحداث وتلبية انشغالات المجتمع حيث يقول'' يجب إجراء دراسة دقيقة لآثار تقانة النانو على الصحة والبيئة. دون أن نوصد مسبقا الباب أمام بعض الأبحاث''. هناك عدد من فرق البحث الفرنسية المتميزة لها خبرة بخصائص تقانة النانو ونمذجتها.

أشياء وآلات ومعدات نانوية.

في مركز CEMES، على سبيل المثال، فإن الفيزيائيين والكيماويين عارفون بأشياء نانوية على مقاس النانومتر، منها أفلام ذات البعدين، زجاج صافي للبصريات ومواد من الكربون (أنابيب النانو وأسلاك النانو والفولورين (fullerenes) (شكلي 1 و 2) والجزيئات الاصطناعية عبر العديد من الطرق الكيماوية والفيزيائية. يمكن للباحثين رؤية تركيبة الذرة لسطح مادة ما بوساطة المجهرين الالكترونيين الماسحين ضوئيا للأشياء (STMS,AFMS) وبالأشعة الصينية المنكسرة على مستوى أكبر. وباستطاعتهم تغيير المادة بمعالجة الذرات، مع استخدام توافقي لأدوات التصوير وتركيز أشعة أيونية . '' بإمكاننا تحليل الخصائص

الناتجة لهذه الأشياء النانونية، وإذا برزت أهميتها، نحاول الاستفادة من ذلك''، قال بن أصياغ (Benassayag). إذاً كيف يتم بالضبط تصنيع الأشياء الجديدة ؟ هناك طريقتان مختلفتان: مقاربة -من الأعلى إلى الأسفل- باستخدام الميكرو إلكترونات (التقانة المتداولة حاليا، المترجم) وتتلخص الطريقة في تصغير حجم الشيء إلى مقياس النانو حسبما تسمح بذلك أدوات التصنيع والعمل على أشياء معيّنة. أما الطريقة الثانية (النانوية، المترجم) من الأسفل إلى الأعلى- والتي يتم تطويرها في المخابر: تنطلق من الذرات والجزيئات وتجميعها للحصول على أشياء، أو هياكل أو آلات جديدة.

تعاني الطريقة الأولى من عملية التصغير التي قد نفقد معها الثقة في النتيجة عند تعاملنا مع المقاسات الصغيرة جدا وأحسن مثال على ذلك الكتابة على الأشياء البلورية. تستخدم حاليا المعالجات الميكروية الصناعية التي تسمح بكتابة و تنفيذ نماذج على أفلام من الراتنج (resin) وتطبع على شبه موصل. تستخدم الطريقة نفسها في تصنيع هياكل نانونية للعجائن، بتشكيل مساحاتها على مقاس النانومتر مما يريح الفيزيائيين والكيمائيين ويسمح لهم بوضع جزيئاتهم النانونية واختراع مواد جديدة. إلا أنه كلما زاد الغوص في مقاسات النانومتر كلما زادت صعوبة تطويع هذه الطريقة للإنتاج الكمي. يقوم باحثو مركز CNRS بدراسة إمكانات وجود طرق بديلة لتحسين طريقة '' من الأعلى إلى الأسفل''. تتم الطباعة النانونية، مثلا بتقليد هياكل نانونية صنعت مسبقا في خلطة من البوليمار كتبت بوسيلة راقية (المختبر Laas)؛ استخدام الكتابة النانونية وتوصيل الأسلاك النانونية وبتركيز الأشعة الآيونية التي تقوم الأشعة الماسحة فيها بدور القلم لرسم الهياكل النانونية على السطوح (مختبر LPN).

وتسمح المقاربة ''من الأسفل إلى الأعلى'' التي تعتمد مبادئ كيماوية من صنع أشياء اصطناعية (جزيئات اصطناعية ، عناقيد) - وهي في الحقيقة غير موجودة - باستخدام الذرات والجزيئات . توجد هنا أيضا العديد من السيرورات لكنها لا تزال حبيسة المخابر. ويرى كرستيان جواشيم من مركز (CEMES) بأنه يجب دراسة الذرة وكل جزيء ووظائفها كلاّ على حدة.

" لهذا السبب صممنا ، وصنعنا ودرسنا آلات نانونية أحادية الجزيء قادرة على الحساب، وتتصرف آليا وأخرى قادرة على التخاطب." ثم أضاف شارحا. " نحن نطور كل الصناعات الكيماوية والتقنيات الحديثة للاتصالات النانوية وطرق التداول النانونية للتمكن من التحكم في الجزيء الواحد وتبادل المعلومات معه." والهدف هو صنع آلة بأقل عدد ممكن من الذرات. وتمثلت النتيجة المدهشة التي تم الوصول إليها بهذه الطريقة في الجزيء ذي العجلتين المتكون من عجلتين وذراعين وساقين وعندما تعترض هذه الآلة (في تنقلها، المترجم) ذرة تستطيع ضمها إليها وتضعها في مكان آخر. هكذا فإن آلات اليوم لا تحتاج إلى محرك ويمكن تحريكها برأس نانوي ولكنها سوف تساعدنا على فهم خصائص الروبوتات النانوية المستقبلية . ومن بين الأولويات الأخرى للفريق هو إنشاء وحدة حساب ثنائية بمقياس أقل من النانومتر مكونة من جزيء واحد. ويمكن عند توصيلها بأسلاك ذرية نانوية للتخاطب مع هذا الجزيء لإدخال وإخراج البيانات. "باختصار" ختم جوشيم، نحن نطور أسس تقانية التصغير النهائي للحواسيب المستقبلية".

في مخبر تكثيف المادة وفيزياء الهياكل النانونية بمدينة ليون (فرنسا) تستخدم المقاربة " من الأسفل إلى الأعلى" لصناعة الكتل لبناء المواد النانونية. وفي نفس المختبر المخصص لصناعة العناقيد المكونة من حزيئات من حوالي مائة ذرة وتسمى أيضا جزيئات نانونية عبر سيرورة المرحلة الفيزيائية الغازية ، "يتم تكوين تركيبات جديدة من الذرات، كما يتم اكتشاف خصائصها، وتوازنها وفعاليتها "، يقول ألان بيراز(Perez Alain)، مدير مخبر (LPMCN). ومن النتائج المهمة: عناقيد من السيلكون شبه موصلة من نوع الفلورين، وهياكل نانونية مغناطيسية أساسها معادن (الحديد والكوبالت والنيكل)، وخليط من المعادن (شكل 1)، ونُظمُ للتطبيقات البصرية تعتمد عناقيد جد مشعة ومن معادن كريمة مثل الذهب والفضة. انطلاقا من هذه الجزيئات النانوية التي توضع بعناية فوق السطوح المناسبة ، نعد هياكل نانوية عمليا ونقوم بالدراسات الفيزيائية الأساسية حسب هدف النظام الذي يتم الحصول عليه. وعندما تكتمل دراسة الهيكل النانوي واعتماد خصائص النظام لإنجاز مكون، نمر إلى مرحلة

الانتقال التقاني مع شريكنا الصناعي" ختم بيراز مضيفا إلى أن المقاربتين " من الأسفل إلى الأعلى، ومن الفوق إلى الأسفل" هما مكملتان لبعضهما البعض وليستا متعارضتين. في تجربتنا وضعنا عجينة (الشكل 1) شكلت لتمثل خلطة نانونية أيونية (من الأعلى للأسفل) ووضعنا فوقها عناقيدنا (من الأسفل إلى الأعلى) لنصنع شرائح ذات البعدين التي تبشر بالحصول مستقبلا على مكونات ذات كثافة رفيعة. إن الأنابيب النانونية الكربونية (الشكل 3) هي من بين الأشياء النانونية الأكثر طواعية. لقد تم اكتشافها بطريق الصدفة سنة 1991 ، هذا الأنبوب الصغير مكون من صفيحة أو أكثر من الكربون مرتبة في هياكل سداسية الشكل ملفوفة على بعضها البعض بقطر يتراوح بين 1,4 إلى 100 نانو متر وطولها حوالي 1 ميكرون متر. " تبقى الإمكانات الورقية لا تصدق"، تقول كاثرين جورني(Catherine Journet)، أستاذة مساعدة وباحثة في مخبر (LPMCN). يمكن أن تكون لها ميزات الفولاذ كما أن بإمكانها أن تكون موصلا جيدا، هذا بالإضافة إلى أن لها خصائص مهمة مثل الخصائص البلورية والكيماوية والميكانيكية: هي في نفس الوقت خفيفة ومقاومة للانقطاع والاعوجاج، وهي لينة جدا ويمكن انحناؤها إلى أصغر الزوايا أو ليها. توفر هذه الجوهرة بحق ميزات مهمة مثلما نجدها في آن واحد في المكونات الالكترونية (كموصل، مكون فوتوكهربائي ، والليزر وغيره) ؛ وفي الدعامات الميكانيكية (مُركبة).

في الواقع تعتمد خصائصها على عدد صفائح الرصاص الأسود وعدد اللفات" قالت جورني. وللتمكن بسرعة من قياس العديد من الخصائص النوعية لكل نوع من أنواع الأنابيب النانوية، وبفعالية ودقة وفي آن واحد، قام فريق ستيفان بورسال (Stephen Purcell) ، كبير الباحثين في مخبر (LPMCN) بتطوير طريقة جديدة تعتمد الإرسال الالكتروني وآثاره على الحقل (emission field effect electron). بدأت عدة تطبيقات ترى الوجود في ميادين الميكانيكا و فيزياء المعادن وفيزياء المواد. يقوم فريق مدينة فيلاربان (Villeurbanne) (بفرنسا) بدراسة تركيبات نانونية خاصة بمصفوفة البوليمار تدعمها أنابيب نانوية. وفي مجال الطاقة جرت محاولات

أولية لتخزين الهيدروجين بطريقة الابتلاع بمعهد العلوم وهندسة المواد للسيرورات (IMP) بمدينة أوديو (Odeillo) (فرنسا). كما يتم تطوير شاشات مسطحة للعرض تستخدم أنابيب الكربون النانونية بمخبر الالكترونات وتقانة المعلومات (Leti) بمدينة غرونوبل (Grenoble) (فرنسا).

هناك أشياء نانوية أخرى ذات قيمة كبيرة بسبب خصائصها الجديدة على المقياس النانومتري ، ومنها على سبيل الخصوص الجزيئات النانوية الذهبية. " في سنة 1982 عندما بيّن باحث ياباني بأنه على مقاييس 2 أو 3 نانومتر تصبح جزيئات الذهب مادة حافزة واستطاعت هذه الجزيئات بالتخلص من وحيد أكسيد الكربون، اعتبرت هذه المعلومة آنذاك على أنها مجرد حيلة" قال أولفار بلوشري (Oliver Plochry)، فيزيائي وأستاذ مساعد في معهد باريس للعلوم النانوية. " بالفعل فالذهب هو أكبر المعادن سكونا في الطبيعة " كما أثبت الفيزيائيون بأن الذهب، مع المقاسات النانو مترية، يكتسب حساسيات بصرية جيدة جدا.

يرى الأستاذ بلانا (Plana) أن العلوم والتقانات النانويتين " تتصدر اليوم الأبحاث" . ولمتابعة إستراتيجية لهذا الميدان أنشأ مركزًا CNRS و CEA مرصداً لتقانتي الميكرو والنانو (OMNT)، تكون مهمته الإشهار بالنقلات النوعية وتوفير المعلومات النافعة في آن واحد للباحثين وللمصنعين الفرنسيين.

تعريف بالعلوم النانوية:

العلوم النانوية هي إحدى مجالات علوم المواد وعلاقة هذه العلوم بالفيزياء والهندسة الميكانيكية والهندسة الحيوية والهندسة الكيميائية. تشكل تفرعات واختصاصات فرعية متعددة ضمن هذه العلوم وجميعها يتعلق ببحث خواص المادة على المستوى الصُغري، وتتولى تقانة النانو هذا الجانب التطبيقي العلمي بإنتاجها للأشياء عبر تجميعها على المستوى الصُغري.

أحدثت هذه التقانة ثورة في العالم حيث انطلق العديد من الدول في إجراء دراسات حول هذه التقانة وكيف يمكن الاستفادة من هذا الفرع الجديد من المعرفة. وقامت دول أخرى بإنشاء

مـراكـز بـحـوث ودراسـات وجامـعـات متـخـصـصـة في تـقـانـة الـنـانـو، وكلّفت مجمـوعـة مـن الخبراء المميزين لدراسة وبحث كل ما هو ممكن في هذا الميدان.

- في مجال الصـحـة سـوف يـكـون لدى الأطباء القدرة على السيطرة على بـعض الأورام الصـغيرة الـتـي كـان التأثير عليها في السابق غير ممكن.

- كما تجدر الإشارة إلى أن من بين الاستخدامات الأمنية الإستراتيجية لتقانة النانو نجد استخدام مكوناتها الصغرى هذه كأجهزة إرسال واستقبال يمكـن تمريـرهـا لأي شـخص بمجـرد مصـافـحـتـه لـتـعـلـق هذه المكونات الـنـانـويـةبـجسـمـه وتبدأ في إرسال معلومات عن حركات ذالك الشخص وسكناته !

المقال الأصلي:

Nanoworld : the keys for understanding

Fabrice Imperiali, staff Writers, CNRS

CNRS International Magazine, no. ,2 Spring 2006

PP.81-.32

عالم النانو: مفاتيح للفهم، إعداد: فبريس امبريالي، المركز الوطني للأبحاث العلمية، المجلة الدولية للمركز الوطني للأبحاث العلمية، عدد ,2 **خريف**,2006 **الصفحات** :18-.23

خلاصة (المترجم)

من مزايا العولمة أن نتائج الأبحاث وجديدها أصبحا في متناول الجادين في المكان والوقت المناسبين. بقي على أصحاب الشأن أن يضعوا السياسات المستقبلية السليمة ويوفروا المناخ المناسب لتمكين الجميع من متابعة ما يجري في هذا العالم الذي يتغير كل يوم بل كل ساعة.

هوامش ومراجع

(1) باحث ومدرس بالمدرسة العليا للأساتذة- القبة: mlarbi08@gmail.com

(2)Richard Feynman هو أبو تقانة النانو (المترجم)

(3) الجزيء مجموعة كهربائية محايدة تتكون من ذرتين على الأقل وهو أصغر جسيم من المادة الكيميائية النقية يحتفظ بتركيبها الكيميائي وخواصها.

(4) النانو متر = 10 -9 متر، أي واحد على بليون من المتر . أما الذرة الواحدة فطولها ما بين 0,1 و 0,4 نانومتر, علما بأن أول صورة أخذت للذرة كانت سنة 1953 بفضل مجهر أيوني.

(5) الذرة هي أصغر جزء من العنصر الكيميائي الذي يحتفظ بالخصائص الكيميائية لذلك العنصر.

(6) CEMES : Centre d'Elaboration de Matériaux et d'Etudes Structurales. http://www.cemes.fr/

(7) في علم الأحياء : الجينوم هو أحد التخصصات الفرعية من علم الوراثة والذي يُعنى بدراسة كامل المعلومات الوراثية المشفرة في الكائن الحي ضمن "الدنا" و أحيانا ضمن "الرنا" في بعض الفيروسات. دراسة الجينوم تشمل كل الجينات - وتدعى أيضا بالمورثات - التي تنتج بروتين وتشمل أيضا المناطق التي كانت تسمى "الدنا غير المشفر" الذي لا ينتج بروتينات. تمت صياغة هذا المصطلح عام 1920 من قبل هانس وينكلر Hans Winkler أستاذ علم النبات في جامعة هامبورغ (ألمانيا)، كدمج للكلمات gene و chromosome.

مسرد بالمصطلحات الواردة في النص

المقابل باللغة العربية	المقابل باللغة الفرنسية	المصطلح بالإنجيلية
دارة- دارات	Circuit	Circuit
الحمض النووي الريبي منقوص الأكسجين "دنا"	A D N	DNA (Deoxyribonucleic acid)
الشفرة الوراثية، الجينوم (7)	Génome	Genome
متناهي الصغر	Infiniment petit	infinitesimally small
صغري	Micro	Micro
مجهر	Microscope	Microscope
نمذجة	Modélisation	Modeling
جسيم	Particule	Particle
سيرورة	Processus	Process
الحمض الريبي النووي (رنا)	Acide ribonucléique (ARN)	Ribonucleic acid (RNA)
تقانة	Technologie	Technology

ملحق بمكونات نانوية

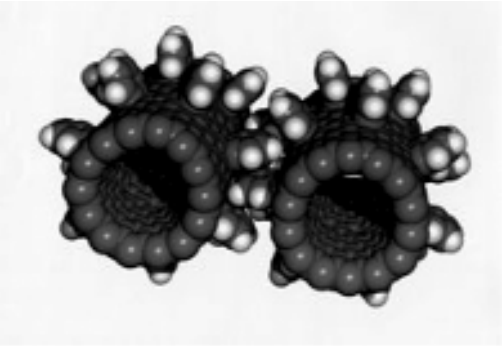

الشكل 1: منتج نانوي

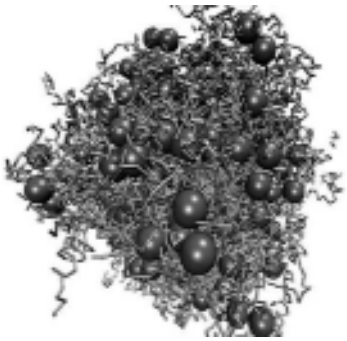

الشكل 2:

الاستعانة بالنمذجة هي إحدى وسائل "ولوج" وفهم عالم النانو. هذا نموذج لخلطة من مادة البوليمار تدعمها أشياء نانوية.

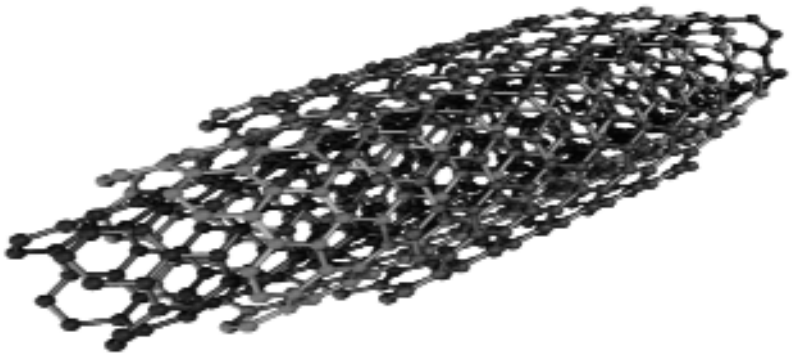

الشكل 3: أنبوب كربوني نانوي ثلاثي الطبقات.

استقبال العمل الأدبي من وجهة النظر الإجتماعية : الاختلافات و التشابهات*

" ماريا ريف "

ترجمة : عبد القادر بوزيده -ج. الجزائر-

حكمـــة الأجـــــداد

أ د صالح بلعيد -ج. تيزي وزو-

استقبال العمل الأدبي من وجهة النظر الإجتماعية ؛ الاختـــلافات و التشابهـــات*

" ماريا ريف "

ترجمة : أ. عبد القادر بوزيده -ج. الجزائر-

انطلقت في العرض الذي أقدمه من مبدأ "التيبولوجية" التاريخية الذي اقترح "جيرمونسكي" اعتماده في البحوث المتعلقة بالتاريخ المقارن للأدب ، و ذلك لاعتقادي بأن تطبيق هذا المبدأ يوفر لنا أساسا يصلح في معاينة التشابهات والاختلافات التاريخية والإجتماعية والأجناسية génerique **في مجال الأدب ، وكذا معاينة السمات المميزة للاستقبال و التأثير .**

لقد تطور الأدبان المجري والروسي حتى منتصف القرن التاسع عشر في ظروف تكاد تكون متماثلة. لكن ابتداء من النصف الثاني للقرن التاسع عشر و خاصة في أواخر القرن بدأت تظهر، إلى جانب التشابهات، اختلافات هامة. ففي المجر، كما في روسيا ، بدأ تطور البرجوازية في وقت متأخر نسبيا . و كانت بقايا الإقطاع في البلدين ، تعطل النمو السريع للبرجوازية. واستمرت إدارة الدولة شبه الإقطاعية في تقديم خدمات ومنافع لطبقة النبلاء المتحالفين مع أرستقراطية المال الحريصة على ضمان علاقات جيدة ومزايا. لكن بقايا الإقطاع و نمو البرجوازية تميز بسمات خاصة في البلدين . ففي نهاية القرن التاسع عشر كانت وتيرة نمو البرجوازية في روسيا أسرع منها في المجر، و لم تكن الصناعة الروسية مركزة في مكان معين مثلما هو حال الصناعة المجرية التي تركزت في عاصمة البلاد .

في روسيا أعطى التصنيع دفعا قويا لنمو المدن. و إلى جانب " سان بطرسبرج " و " موسكو " تطورت المدن في الأقاليم. وظهرت فيها فئة من " الانتلجنسيا " ضمت إلى جانب المثقفين المنحدرين من وسط النبلاء، مثقفين من أصول" شعبية " لعبوا دورا هاما. و في بعض الأماكن، كان الأطباء والأساتذة والطلبة في مدن الأقاليم يمثلون بعد الجيل الثاني من هذه الفئة؛ وهناك أيضا ممثلون وأدباء و فنانون من اصول " شعبية " . وكانت مثل هذه المصائر المقبولة و المختارة عن قصد من المثقفين " الشعبيين " تمكنهم من كسب قوتهم بعملهم . وكانت طريقة تفكيرهم ذات منزع ديمقراطي وتطلعاتهم تعبر عن الرغبة في التغيير. في الوقت نفسه ، كانت الصعوبات التي تعتري حياتهم تولد لديهم موقفا تأمليا قلقا يجعلهم أكثر تفهما تجاه "الانتلجنسيا " المنحدرة من وسط النبلاء . وكان بحثهم عن معنى للحياة يضاعف من تعاطفهم مع هذه الفئة الاجتماعية، رغم أن موقعهم داخل المجتمع هو الذي يحدد موقفهم الأساسي.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان التصوير الشعري " أوكار النبلاء " والقصور الريفية ، يمثل الموضوع الرئيسي للأدب الروسي . وبعد غوغول ، بدأت المدينة تحظى بأهمية معتبرة خاصة في روايات دستوفسكي . ففي رواياته تظهر المرحلة الشرسة في التطور الرأسمالي، ويتجلى البؤس بكل فظاعته و آثاره المدمرة على النفس الإنسانية .

وقد ظهرت لدى الكتاب الشبان الروس في الثمانينيات اهتمامات جديدة بخصوص الأدب، إن على مستوى الأفكار أو الأسلوب. في هذا الوقت بالذات تحولت أشكال مثل المسلسلات والرسيمات و الملخصات و الحكايات إلى قصص قصيرة ؛ هذا النوع الذي هيمن في منعطف القرن، وكان تشيبخوف أشهر ممثليه في الأدب الروسي والأدب العالمي. وهكذا، كانت القصة الروسية القصيرة، و خاصة القصة القصيرة التشيخوفية تمثل تنويعة مميزة لبعض اتجاهات الأدب العالمي.

إن القصة القصيرة في شكلها الناضج ، العصري ، هي ثمرة تطور الحياة المدينية . و ليس من قبيل

الصدفة أن يكون القرن التاسع عشر، بعد مرحلة النهضة، هو القرن الذي عرف فيه هذا النوع ازدهارا جديدا. إن القصة القصيرة كما ظهرت في القرن التاسع عشر، الغنية بالأحداث، والقريبة بالتالي من الرواية ، لم تعد تتلاءم، لا مضمونا و لا شكلا ، مع الاحتياجات العصرية.

فالصياغة الموجزة المركزة، و تجميع أهم عقد الموضوع تشكل اختلافا أساسيا مع الرواية. وهو اختلاف خاص بالقصة القصيرة كما عرفتها نهاية القرن التاسع عشر. وقد تمثلت إحدى الحلول المميزة لهذه القصة القصيرة في أن المؤلف لا يلتقط إلا حلقة من موضوع معقد، فيخلق هكذا وضعية درامية ينجم عنها مناخ شديد الكثافة والتركيز، حيث تنكشف طبيعة الشخصية وموقفها في الوقت المناسب بقوة كبيرة. و يمثل المونولوج و الحوار المدرجين في إطار عملية الحكي التي يقوم بها المؤلف أداتين هامتين للتصوير السيكولوجي . إن الطابع الوصفي للقصة يتغير، وتضاف إليه عناصر درامية. و هكذا، تصبح " الدرامية "، بشكل من الأشكال، عنصرا لصيقا بالقصة القصيرة. إن المدينة و جوّها، ونمط العيش المتغير، كل هذا لم يعد يسمح بتكرار اللوحات التي يعرضها النوع. فقد أصبحت القصة القصيرة تستقي أبطالها من وسط مختلف، و تهدف الى إلقاء الضوء على الحياة اليومية المتأزمة، المتقلبة والمتناقضة التي يعيشها المثقفون والبرجوازيون الصغار والموظفون المعوزون و الناس البسطاء .

لقد كانت القصص القصيرة الأولى التي كتبها تشيخوف تبدو غريبة جدا على الأدب الروسي. كانت هذه الحكايات الصغيرة خفيفة، مرهفة، هزلية تثير بسمة لامبالية لدى القارئ. وقد تميزها النغمة العاطفية أحيانا، لكن تشيخوف يدرج في قصصه القصيرة أيضا المحاكاة الساخرة ، وحتى الرسيمات الساخرة والهجائية. هذه المرحلة من المراحل التي ميزت أدب الكاتب يمكن تسميتها بمرحلة التدريب والمران . ولكن المهم هنا ليس بحث الكاتب عن طريقه الخاص فحسب ، بل كذلك تكون رؤيته للعالم و طريقته الخاصة في الكتابة و التي تتمثل إحدى مميزاتها في الأسلوب البسيط ، المركز و المقتضب الذي اكتسبه تشيخوف عندما كان يتعامل مع الصحف و المجلات الهجائية .

ونذكّر هنا بالتحفظات التي استقبل بها ممثلو النقد الأدبي الروسي، مثل "ميخائيلوفسكي" و"سكابيتشافسكي"، أعمال تشيخوف. كان كتاب السلاسل من معاصريه يعتبرونه ، عموما، كاتبا موهوبا، ولكنه ليس جذابا . وقد يحسن في هذا المجال، تقديم بعض الأمثلة: كان أرسينييف، وهو ناقد مشهور في ذلك العصر، يرى أن تشيخوف يقلب النسب بين المضمون والشكل، وأن شخصياته ضبابية وغير قابلة للتصديق. وكان "ميريكوفسكي" يرى فيه قدرة على" الادراك الغريزي العادي لحياة الطبيعة اللاواعية ". هذا رغم أن قصصه القصيرة لا تحتوي ، في رأي الناقد، على طبائع ولاعقد ولا حلول . لكن الأمور تغيرت بعد أن نشر تشيخوف قصصه القصيرة" الهامة " ، فأصبح النقد أكثر تفهما، رغم أنه لازال يأخذ عليه برودته وحياديته وموضوعيته المفرطة . وانه لأمر مثير للدهشة أن نقرأ اليوم ، خاصة بعد اطلاعنا على الدراسة الرائعة التي وضعها "توماس مان" حول تشيخوف، أن نقرأ في نص لـ" بروتوبوبوف" ،يعود إلى 1892انتقادا يأخذ فيه على تشيخوف أنه يتظاهر بالتشاؤم ، وأنه لا يمتلك رؤية حقيقية للعالم .وقد استخلص النقد مثل هذه النتائج من تحليل" قصة حزينة " التي كان توماس مان يعتبرها قصته الأكثر إثارة للدهشة. و يمكن تقديم أمثلة كثيرة على هذا النوع من النفد الذي كانت تعج به المقالات المنشورة وقت أن كان تشيخوف حيا، رغم أن الاعتراف بدأ يتزايد بصدقه وإنسانيته و قدرته على الصياغة. كان " أرسينييف " يرى أن قصصه الأكثر نجاحا هي التي تخلى فيها عن ميله للنادرة. وأكد المؤرخ الأدبي " أوفسيالتيكوكوليكوفسكي" على اقتداره محللا نفسيا، ومعرفته وتصويره لمختلف الحالات النفسية، مرتكزا في ذلك على أثرين: "حياتي" و"ايونيتش". لكن التجديد الحقيقي الذي أحدثه تشيخوف وعظمته لن يعترف بها سوى بعض معاصريه مثل ليون تولستوي ومكسيم غوركي. ولعل تولستوي هو أول من شبه طريقته في الكتابة بطريقة الرسامين الانطباعيين. وكتب غوركي كلاما جيدا حول قدرته على التركيز الرمزي وواقعيته.

ورغم كل هذا، فقد دخل تشيخوف الأدب العالمي من بابه الواسع، وأصبح يعد كاتبا ماهرا، مثل فترة بأكملها حتى وإن لم يدرك ذلك النقد الروسي المعاصر له. و أود هنا تكملة تاريخ الاستقبال الذي خص به خلال حياته ببعض معطيات الاستقبال المجري له.

تميزت نهاية القرن التاسع عشر في المجر هي أيضا بازدهار النثر . وفي المجر لم تنتج الرواية الواقعية التحليلية أعمالا عظيمة كتلك التي ظهرت في الأدب الروسي و الأدب الفرنسي. لقد تجاوز النثر الأوروبي الى حد ما، تلك النبرة المرحة، الحميمية والعائلية المميزة للروائيين شبه الرومنتيكيين وشبه الواقعيين: "مورجوكاي" (1904-1825) و" كيلمان ميكزاث" (1910-1847). لكن الانجازات الحقيقية للنثر المجري تمثلت في الأنواع القصيرة. ففي تلك الفترة، كانت الإبداعات ذات القيمة العالمية في الأدب المجري تظهر أغلب الأحيان في القصة القصيرة وهو ما يعد في الوقت نفسه تعبيرا عن عالم المدينة المجري. وقد سمح التجديد الذي أحدثه "ساندور برودي" بالتعبير الفني عن الفترة الجديدة.

وكانت ترجمات قصص تشيخوف قد بدأت تظهر منذ 1889 في الصحافة المجرية (كانت أول ترجمة هي ترجمة قصة " رهان " التي ترجمت تحت عنوان " مليونان "). و إنه لمما يلفت الانتباه أن تقديم الكاتب الأجنبي في الصحافة المجرية ، كان يتم في شكل مقدمة مختصرة و مقالة إخبارية عن الكاتب ، تتبعها الأعمال نفسها . لكن طر يقة تقديم تشيخوف لم تجىء على هذه الطريقة المعهودة .فقد ترجمت قصة من قصصه قبل أن يقوم "أندريه زابو" في 1893 وهو من ترجم الأدب الروسي وعرف به ، بوضع مقالته حول تشيخوف لتنشر في موسوعة " بالاس ".

وعندما نحلل الترجمات الأولى لقصص تشيخوف ، نلاحظ أن القراء المجريين بدأوا يتعرفون أولا على أعمال تشيخوف شابا ، تلك التي أخذ عليها "أرسينييف" طابعها النادري . ونفترض أنه ليس من قبيل الصدفة أن يقع الإختيار على هذه القصص بالذات، وهذا نظرا لترسخ " النادرة " في الأدب المجري . فنحن نجد في هذه القصص شيئا من الشبه مع المكون النادري و التصويري للأنواع الأدبية

الواقعية عند كل من ''جوكوي'' و''ميكزاث''. كما أن المحتوى الجديد الذي أدخله ''برودي''، حوّل الأشكال النثرية التقليدية. و أصبح النثر يستقي من حياة المدن لغة جديدة . و في هذا الصدد، قد يكون من المفيد الاستشهاد بملاحظات ''مایاکوفسكي'' في دراسته حول تشيخوف التي تعود إلى سنة 1914: '' و ها هو تشيخوف يدخل في الأدب التسميات المنحطة لأشياء منحطة ، و يوفر هكذا امكانية التعبير اللغوي لـ '' روسيا التجارية ''. إن تشيخوف هو كاتب الفئات الدنيا. وهو أول من دعا إلى استخدام تعبير لغوي خاص لكل مظهر من مظاهر الحياة ''.

وفي المجر، بدأت تروج القصة المنشورة في شكل مسلسل في الجرائد. و لعل ذلك أن يكون بتأثير من تشيخوف .

وتبين التحليلات التي نقوم بها درجة الاهتمام التي حظيت بها قصتا ''حنين'' (1885) و''زينوتشكا'' (1887). ترجم النص الأول ثماني مرات ، و الثاني سبع مرات الى اللغة المجرية ، وقت أن كان تشيخوف على قيد الحياة. وكانت قصص ''الحرباء '' و '' السمين والضعيف'' و''موت موظف'' تحظى بشعبية هي أيضا. و أحب القراء أيضا ''غريشا'' و'' فانكا '' و''المحار'' و''كاتشانكا''، وهي قصص تتحدث عن الأطفال. و في 1890 نشر'' أندريه زابو'': ''أستاذ الأدب'' ثم ، بعد ست سنوات،: ''المبارزة''. وظهرت ''حياتي'' في 1899 ، و''القاعة رقم "06 في 1904 السنة التي توفي فيها تشيخوف، تحت عنوان ''جنة الإله'' و بين سنتي 1890 و 1904 نشرت سبعة مجلدات من قصص تشيخوف، وهو ما يبين اهتمام الجمهور بها. وقد ترجمت قصصه العاطفية و السيكولوجية، وإن بدرجة أقل مثل ''السيدة صاحبة الكلب'' و «منزل ميزانين''. و حتى وفاته ظهرت حوله خمس مقالات متفاوتة الطول وكانت كلها تمدحه ولا تشكك في موهبته'' موهبته الرائعة و قدرته على ابتكار الشخصيات و تصويرها ''. و رغم ذلك ، يبدو لنا أن تشيخوف حيا لم يحظ من قبل المعجبين به في عصره بنفس الاعجاب الذي يحظى به من قرائه اليوم.

من بين أساتذة الأنواع القصيرة في النثر المجري، قد يكون '' زولتان توري '' (1870-1906).. هو الأشبه بتشيخوف. كان ''توري'' يتجاوز المستوى الذي بلغته أعمال القصصيين المجريين في تلك

الفترة ، مثل ''بيتلي'' و''غوزدو'' و''إمبروس'' ، في تصوير بسطاء الناس. لقد اكتشف ''توري'' في بسطاء الناس الكائن المتأمل، المتمرد. وكان، مثلما هو الحال في العديد من قصص تشيخوف الناضجة، يحاول تصوير الحدث الذي يسبق الانعطافة الدرامية. وقد تكون معرفته بتشيخوف، في السنوات الأخيرة من حياته، سهلت تعميق نزعته الساخرة التي يغذيها التناقض الفكري والانفعالي في رؤيته للواقع، فكتب أعماله المأساوية-الهزلية التي تعتبر من أهم مميزات تشيخوف الشاب. ويعد ''توري'' أقرب الكتاب المجريين من تشيخوف في تصويره النفسي وأسلوبه الموجز المركز. لكنه رغم ذلك لم يبلغ مستوى العمق الفكري والانفعالي الذي بلغته قصص تشيجوف القصيرة؛ هذه القصص التي شكلت في ثمانينيات القرن التاسع عشر بداية الأدب العصري في مجال القصة الغنائية. وكانت إحدى سمات هذه القصة الحديثة هو الموقف الموضوعي للكاتب، الذي تصاحبه رغبة في تقديم كل شيء. هذا الجانب في أعماله صعب فهمه على معاصريه من المجريين الذين عرفوا تولستوي ودستوفسكي؛ وهو ما تجسده السطور التالية من المقال الذي وضعه ''كاولي لوفيك'' في تأبين تشيخوف: '' لقد قاد عقل منضبط قلما منضبطا(...). إن لغته الملونة ولكن الدقيقة مثل لغة المتحذلقين جعلت الآراء المعبر عنها جافة وباردة (...) وقد صور شخصياته بدقة هندسية لكن مقاسها هو الذي لا يلائم المتطلبات. إن روحها وعواطفها هي التي كانت تافهة''.

لكن ''لوفيك'' لم يفهم الطابع المأساوي لتفاهة الحياة، ولا الرغبة في حياة أجمل تمزق عتمة الحياة اليومية التي يعيشها البرجوازيون الصغار؛ هذه الرغبة التي تتراءى تقريبا في كل قصص تشيخوف في مرحلة النضج، التي تنتهي دائما بالتساؤل حتى وإن لم يكن ذلك في شكل السؤال النهائي. ويضيف ''لوفيك'' : '' إن تشيخوف في قصصه يخشى من استنتاج النتائج...إنه لا يحمل بداخله حب الحقيقة الذي لا يلين والذي يميز كبار الكتاب..إنه يرى كل ما يسر، ولكن نظره يخطئ النقائص''. صحيح أن ''الخطيئة'' و''رجل في علبة'' و''ثلاث سنوات'' لم تنشر إلا بعد,1945 لكن كان في مقدور ''لوفيك'' أن يدرك إدراكا أعمق وأذكى فن الكتابة عند تشيخوف، وقد يكون تعلقه بالتقاليد الأرستقراطية والطبقة العليا منعه من ذلك.

لقد استقبل أعمال تشيخوف في الأدبين جمهور مختلف يحمل أذواقا مختلفة؛ لذا نظر إلى العمل نفسه وقوّم بطريقة مختلفة أو متشابهة. وقد أشارت دراسة ''استيفان سوتير''، المنشورة في ,1954 إلى هذا التأثير:'' إن القصة المجرية القصيرة تدين بالكثير لتشيخوف حتى اليوم. وإن اهتمام كتابنا بشجاعة أكبر بالقضايا الاجتماعية، وظهور الناس البسطاء، ووجوه من القرية والمدينة في قصصهم إنما يعود، بدرجة كبيرة، إلى تأثير تشيخوف''. لقد صور تشيخوف الحياة والمدينة في الأقاليم؛ وكانت الرسالة الأساسية التي تحملها قصصه هي التأكيد والرغبة في حياة العمل. وقد أكد ''مایاكوفسكي''، بحق، في,1914 بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة تشيخوف، في المقالة المذكورة سابقا: '' إن هذه الأشكال الجديدة في التعبير عن الفكر، وهذه النظرة الصحيحة لقضايا الفن الحقيقية تمنحنا الحق في الحديث عن تشيخوف باعتباره أستاذا في فن القول. ففي مواجهة الصورة الشائعة عن تشيخوف، باعتباره برجوازيا صغيرا نواحا، لايرضى أبدا، وباعتباره المدافع عن ''بسطاء الناس غريبي الأطوار''،(...) تتراءى ملامح تشيخوف آخر: أستاذ فن القول، المقتدر والمرح''.

وفي الأدب المجري، سوف يظهر التأثير الحقيقي لتشيخوف عشر سنوات من بعد، في وقت تكونت فيه ظروف اجتماعية جديدة هيأت الشروط ووفرت الإمكانية لتبني أفكار تشيخوف وفنه بطريقة مماثلة.

× هذا النص هو مداخلة قدمت في أحد مؤتمرات الربطة الدولية للأدب المقارن، وهي دراسة مقارنة تتناول العلاقة بين الأدب الروسي والمجري، لكن أهميتها، التي دفعتني إلى ترجمتها، تتمثل في كونها عبارة عن تطبيق مقنع للطريقة "التيبولوجية " التي وضعها " جير مونسكي" في الدراسات المقارنة والتي تميزت بها المدرسة السوسيولوجية في الأدب المقارن وهي طريقة يمكن أن تفيدنا في دراسة الأدب العربي بغيره من الآداب

حكمة الأجداد

أ د صالح بلعيد

قال جدي في حكمته هذه: خذ عنّي يا حفيدي، فأنا زائل لا محالة، وأملك تراثاً كبيراً، وأطلب منك نقله للأجيال القادمة كي لا تنسى تاريخها، ففي هذه المرة سجّلْ عني كلام فصل دقيق عن فصول السنة:

سُبحان وِين إخلقَنْ لَفْصول	أنعيذ ســـــاول
يهذا ياغد غاالإســـــلام	يشعاغد أرْســـــول
محمـــــذ مفضـــــول	عليه أصلاة والسلام
ذا القرآن فـــــلاس مَنزول	ذا أزديـــــان مَلُول

ثافاث أو يلي أطلامْ

اعلم يا حفيدي أنّ تسميات السنة الفلاحية/ المازيغية سيّان، إلاّ أنّ السنة المازيغية تبدأ في 12 جانفي من الميلادي، وذلك الشهر يسمى (أناير). وأما الفصل فيبدأ من 14 جانفي من كلّ سنة فلاحية. وأما السنة الميلادية فأنت تدرسها في المدرسة. وبالنسبة للسنة القمرية، فهي سنة فيها 355 يوماً فقط، وذلك ما يجعل الشهور غير ثابتة؛ حيث تدور. والسنة القمرية تبدأ دائماً ببداية شهر رمضان، وفيها 7 أشهر عدد أيامها 30 يوما، وفيها 5 أشهر عدد أيامها 29 يوماً = 355 يوماً.

اعلم يا حفيدي أنّ عدد أيام الفصول الفلاحية ثابتة، وهي كما يلي:

91 يوماً لفصل الخريف.

91 يوماً لفصل الشتاء.

91 يوماً لفصل الربيع.

92 يوماً لفصل الصيف. فيكون المجموع = 365 يوماً. وهذه هي أيام السنة العادية.

تبدأ السنة الفلاحية من الخريف، فتاريخها ثابت لا يتغيّر، فيكون كما يلي:

- 30 أوت يدخل الخريف بـ 91 يوماً، وينتهي في 28 نوفمبر.

- 29 نوفمبر أول يوم من أيام الشتاء، وينتهي فصل الشتاء في 27 فبراير بعدد أيامه91 يوماً.

- 28 فبراير يدخل فصل الربيع الذي ينتهي في 29 مايو بعدد أيامه 91 يوماً.

- 30 مايو فصل الصيف ويستمرّ إلى 29 أوت بعدد أيامه 92 يوماً = 365 يوماً.

وكلّ أربع سنوات تأتي سنة فيها 366 يوماً ونصف اليوم و 6 ساعات و 53 ثانية، وهذه السنة تسمى السنة الكبيسية (ثكپاس). وهي السنة التي ينتهي فيها شهر فبراير بـ 29 فإلى أين نسند هذه الزيادة الطارئة. قال جدي: ذلك يوم يعدّ عند قدمائنا بأنّه زاد في الشروق مات في الغروب. فقلت: ما فهمت المقصود؟ قال:

افرض أنّ الخريف في هذه السنة 30 أوت يكون يوم جمعة، فاعلم أنّ بداية كلّ الفصول تكون في يوم الجمعة هذه السنة. ففي السنة القادمة تكون بداية الفصول في السبت، تنتقل الفصول بعد كلّ سنة عادية بيوم واحد فقط، وفي السنة الثالثة تكون بداية الفصول يوم الأحد. وفي السنة الرابعة تكون البداية يوم الثلاثاء؛ حيث تكون الزيادة بيومين لا بيوم واحد، ومن هنا سميت بالسنة الكبيسية. وهذا هو التكبيس يا حفيدي.

اعلم وخذ مني التجربة التالية: السنة الميلادية مقسّمة إلى اثني عشر شهراً:

الشهور مقسّمة إلى 7 شهور عدد أيامها واحد وثلاثون (31). و4 شهور عدد أيامها ثلاثون يوماً (30) وشهر فيه 28 يوماً، فيكون المجموع = 365 يوماً.

ففي كلّ شهر أيام (الصحّ) وأيام (السوس) وهي كما يلي:

- 5 أيام الأولى من كلّ شهر (صح).

- 5 أيام موالية (سوس).

- 4 أيام (صح).

- 4 أيام (سوس).
- 3 أيام (صح).
- 3 أيام (سوس).
- 2 يومان (صح).
- 2 يومان (سوس).
- 1 يوم واحد (صح).
- 1 يوم واحد (سوس).

المجموع = 30 يوماً. هذا في الشهر الذي أيامه ثلاثون يوماً.

وإذا كان الشهر يحمل تسعة وعشرين يوماً، فكيف يكون التوزيع؟

- 5 أيام الأولى (صح).
- 5 أيام الموالية (سوس).
- 4 أيام بعد ذلك (صح).
- 4 أيام (سوس).
- 3 أيام (صح).
- 3 أيام (سوس).
- 2 يومان (صح).
- 2 يومان (سوس).
- 1 يوم واحد (صح). فلا يوجد في ذلك الشهر اليوم الأخير من (السوس).

المجموع = 29 يوماً.

وماذا تعني كلمة (الصح)؟ تعني الكلمة أنّ كل ما يقطع في أيام الصح من أغصان لتسقيف المنازل لا يمكن أن تسوّس مهما جاء عليها الزمان، ويمكن أن تعمّر قروناً، بل إنّ بعضها لا يمكن أن يدخلها المسمار إلاّ بالقوة. وأما (السوس) فإنّ الغصن الذي يقطع في أيامه فإنّه لا يقاوم وسوف يدخله السوس وينكسر بسرعة؛ حيث تأكله الأرضة، ولا يصلح إلاّ للتدفئة. وهذه تجربة الفلاحين الجبليين في تعاملهم مع قطع الخشب لتسقيف منازلهم، ووضعها عتلات للسقف؛ باعتبارهم يستعملون كثيراً الأخشاب في بناء بيوتهم.

وإذا فصّلنا في الفصول الخاصة بالسنة الفلاحية، فعليك ألاّ تنسى هذا:

إنّ بدايات الفصول الفلاحية مستقرة دائماً، مثلها مثل الشهور الميلادية، فبداية الخريف تكون دائماً يوم 30 أوت (لَخريف) وعدد أيامها 91 يوماً. ويقسّمها الفلاحون كما يلي:

ـ البداية 4 أيام من 30 إلى 2 سبتمبر تسمى أصْمايَم؛

ـ 15 بعد ذلك غشت إلى 17 سبتمبر؛

ـ الباقي كلّها تسمى لخريف حتى 84 من الخريف؛

ـ 7 أيام الأخيرة لدخول الشتاء تسمى إصَمّاضن. والمجموع = 91 يوماً.

وهناك من يقسّمها كما يلي:

ـ 15 يوماً الأولى تسمّى لخريف؛

ـ 15 يوما الموالية غشت = 30 يوماً.

ـ 30 يوماً ثوپر؛

ـ 31 يوماً أكتوبر: وفي داخلها تقسم إلى قسمين:

ـ 24 يوماً أكتوبر + 7 أيام إصماضن = 91 يوماً هي أيام الخريف.

وأما الشتاء فتبدأ دائماً في 29 نوفمبر، وهي مقسّمة كما يلي:

ـ 7 أيام إصماضن، من 29 نوفمبر إلى 6 ديسمبر؛

ـ 39 يوماً أَلْيالي. سميت كذلك لأنّ لياليها طويلة.

وتبقى 45 يوماً تقسّم كما يلي:

ـ 31 ناير + 14 يوماً فورار الشتاء = 91 يوماً أيام الشتاء.

وأما الربيع فيبدأ في 28 فبراير من كلّ سنة، وتتوزّع كما يلي:

ـ 14 يوماً فورار الربيع؛

ـ 31 يوماً مغرس = 45 يوماً. واليوم الخامس والأربعون يسمّى أَوَحْداني؟ فما معنى (أوحداني)؟

اعلم يا حفيدي أنّ التجربة أفادتني بأنّ هذا اليوم وحيد، فهو يوم يصلح للتشذيب أو النقش، فقط. وإنّه لا يصلح للغرس، ويمكن للشخص أن يغرس ما يريد من فسلات، ولكن قضت الإرادة الإلهية أنّه لا تصلح إلاّ فسلة واحدة، فمهما زرع فيه الإنسان من شجر فلا تخرج إلاّ غلّة واحدة، وهي حكمة ربانية أرادها. كما قضت الحكمة الربانية أنّ صباح يوم الجمعة لا يصلح للأمور الفلاحية بتاتاً، فكلّ غرس أو زرع قبل صلاة الجمعة لا ينمو نمواً طبيعياً، وهذا ما نسميه بـ (أعزوڤ) أي الأصم؛ حيث لا يكبر إلاّ بعد عمر طويل، يكبر كلّ سنة بسنتمتر واحد، ويبقى أصماً إلى الأبد، ولهذا لا يستحسن الغرس فيه. ولكن بعد الصلاة كلّ شيء فيه عادٍ، بل كلّ

شيء فيه أفضل من أيام أُخَر. كما أبانت لي التجربة أنّ القيام بالأعمال الفلاحية في يوم الأربعاء لا تصلح. وإما يوم الاثنين فهو اليوم الذي يصلح للكلّ فإن سقط شيء في الاثنين ينبت بحول الله، ولو وضعت شيئاً على الأرض ينبت بحول الله.

وتعالِ نكمل ما بقي من أيام الربيع، وهي 46 يوماً، وهي مقسّمة كما يلي:

- 30 يوماً يڤرير: وتقسّم كذلك إلى 26 يوماً، يڤرير، و 4 أيام نيسان.

- 16 يوماً ماو، وهي مقسّمة كما يلي: 3 أيام الأولى نيسان. فيكون نيسان له 7 أيام. ثمّ ماو وتقسّم أيامه كما يلي: 8 أيام تسمى إززاون، و 8 أيام إيوراغن.

ويكون مجموع أيام الربيع91 يوماً بالتمام.

وأما الصيف فيدخل في 30 مايو، فيومه الأول يعدّ من أيام إيوراغن، وأيامه 92 كما يلي:

- 36 صيف؛

- 15 غشت؛

- 40 أصمايم؛

- 01 ليوم أيوراغن = 92 يوماً.

وهناك تقسيم آخر يقرّه بعض الفلاحين في التفصيل الإضافي:

- 7 أيام تسمى إيملالن؛

- 7 أيام تسمى أُوحضيمن؛

- 7 أيام إيقورانن = 21 يوماً؛ من أصل 36 يوماً

- 15 يوماً غشت؛

- 40 يوماً أصمايم.

فيكون المجموع = 91 يوماً، يضاف له اليوم الأول من دخوله، فيكون المجموع = 92 يوماً.

ويقول الفلاحون بأنّه في اليوم السابع والثلاثين يدخل الدكّار. وفيه ترى الفلاحين يجمعون الهشيم ويشعلون النار أو يثيرون الغبار كي يُختم التين، أي يثمر فلا يسقط التين الجنين. وهو نوع من التلقيح الخاص بالتين.

هذا كلامي المبين فخذوه عني يا بنين وانقلوه وقولوا آمين.

مهاتير محمد قراءة استشراف

ماليزيا والعولمة في آفاق 2020

Globalizing Malaysians in 2020
by Y.A.Bhg Tun Mahathir Bin Mohamad
December 2010 13

حوار: دومينيك فينر

صدمة التاريخ

الذاكرة والدين والتاريخ

حاوره: لور ديستري

ترجمة: محمد قماري

مهاتير محمد قـــراءة استشـــراف
ماليزيـــا والعولمـــة في آفـــاق 2020

ترجمة الأستاذ د.عمر نقيب

1) تبنت ماليزيا في عهد الدكتور محاذير بن محمد مشروعا تنمويا عرف بـ"آفاق 2020" وأصله في اللغة الماليزية "Wawagan 2020" وهو المشروع الذي استطاعت ماليزيا أن تدخل بفضله علم النمو الأسيوي، بل وأن تصبح أحد النمور الكبرى فيه حيث حققت ماليزيا تحت قيادته اقتصاديا غير مسبوقق في تاريخها الطويل.

2) الدكتور محاذير من مواليد 1925 ولا يزال يحتل مناصب حكومية حساسة في أهم الشركات الماليزية الكبرى .

أولا أود أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جامعة يونيتان (Universiti Tenaga Malaysia) على هذه الدعوة الكريمة من أجل إلقاء كلمة على أعضاء هيئة التدريس والطلبة فيها. ولا أخفي عليكم سروري وابتهاجي أنه منذ كلمتي الأخيرة أمامكم؛ بل منذ تأسيس هذه الجامعة، فإنّ هذه الأخيرة تطورت وبشكل ملحوظ؛ فقد تجاوز عدد الطلبة فيها الثمانية آلاف (8000) طالب. كما أنني مسرور بشكل خاص بسبب ارتفاع نسبة توظيف متخرجّي هذه الجامعة مقارنة مع الجامعات الماليزية الأخرى. ولعلّ هذا الإنجاز ليس أقل من مؤشّر فعلي على مستوى النوعية التربوية التي استطاعت جامعتكم تحقيقه منذ تأسيسها.

لقد طُلِب مني أن أتحدث عن "إعداد الإنسان الماليزي وتأهيله لمواجهة تحديات العولمة في آفاق "2020 ولم يبق لبلوغ هذا الموعد إلا عشر سنوات من الزمان. لست متأكّدا ممّا سوف أقول لكم، هل أصيب أم أجانب الصواب؛ غير أنه يغلب على ظنّي أنني قد لا أكون بينكم في ذلك التاريخ لأتأكّد من صحة رؤيتي أو عدم صحتها لأبادر من ثمّ إلى تصحيحها.

إنّ العولمة ليست وليدة هذه الأيام. فقد بدأت إرهاصاتها الأولى في الظهور منذ زمن بعيد؛ وبالتحديد سنة 1492 ميلادي عندما استطاع كريستوف كولمبوس (1451 - 1506) تجاوز المحيط الأطلسي واكتشاف الفضاء الغربي، بعد فترة وجيزة من وصول فاسكو دي غاما (1469 - 1524) إلى رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا، ومن ثم الإبحار في المحيط الهندي لاكتشاف الهند "الحقيقية" ومن بعد ذلك، بطبيعة الحال، جنوب شرق آسيا وشرق آسيا.

وبسبب هذه الاكتشافات الغربية شهد العالم منذ ذلك التاريخ تغيرات تاريخية عميقة. إنّ هؤلاء الغربيين، لما وصلوا إلى هذه المنطقة من العالم، لم يحملوا معهم الأموال فقط لشراء "توابل" الشرق الأقصى؛ وإنّما حملوا معهم أيضاً إرثا ثقافياً، وأسلوب حياة وأنظمة وقوانين سبق لهم أن اعتمدوها في بناء حضارتهم.

ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت أوروبا مركز العالم كلّه . وبعبارة أخرى، أصبح العالم يسير وفقا للنظرة الأوروبية الغربية للحياة بكل ما تحمله هذه النظرة من سلبيات وإيجابيات. غير أنّني أفضّل أن أبدأ حديثي عن الجوانب السلبية لهذه التجربة الغربية من أجل أن نحصل على نظرة صحيحة عنها تساعدنا على التعامل السليم معها.

إنّ الأوروبيين الذين جاءوا إلى بلادنا كانوا في أغلبهم تجّاراً. جاءوا من أجل التجارة لأنّ الشرق الأقصى كان مشهورًا في ذلك الزمان بإنتاج "التوابل" بالإضافة إلى أنواع متعدّدة من المعادن الثمينة مثل الماس وما شابه ذلك، والتي كانوا يتمنّون الحصول عليها. هذا، على خلاف نوع التجارة التي كان يمارسها العرب واليابانيون والصينيون والهنود في هذه المنطقة من العالم.

والملاحظ أنّ هؤلاء التجار لم يكونوا تجّاراً عاديين وإنّما كانوا تجّاراً من نوعٍ خاص؛ إذ كانوا يأتون مسلّحين لاعتقادهم أو لتوقّعهم أنّهم لن يحصلوا على مرادهم بسهولة ودون عناء؛ بل قد يتطلّب منهم الوضع قليلاً من المقاومة من أجل الحصول على ما يريدون؛ الأمر الذي لم ينتبه إليه الأسيويون. وبطبيعة الحال، فإنّه من المعلوم أنّ طريقة الأوروبيين وأهدافهم في التعاطي مع المسائل التجارية تختلف عن تلك التي يتّبعها نظراؤهم الأسيويون. ومن أهم ما يتميّزون به اهتمامهم؛ بل نزوعهم إلى احتكار التجارة فيما يرون حاجتهم إليها ماسة. كما أنّهم لجأوا إلى إقامة المصانع للمحافظة على مصالحهم هناك، وتخزين ما يتم شراؤه من سكان تلك المناطق. غير أنّ اهتمامهم هذا لم يقف عند هذا الحد؛ بل تجاوزه إلى محاولات الاستيلاء على ممتلكات المنتجين المحليين وتحويلها إلى مستوطنات؛ الأمر الذي ترتّبت عنه آثار عميقة على ثقافة السكان وأسلوب حياتهم وطرق تفكيرهم وأخلاقهم.

وبالطبع، ففي الغرب كان مستوى النمو، فيما نظن، أقل ممّا كان عليه في الشرق الأقصى. كما أنّ أمريكا بشمالها وجنوبها كانت قد وقعت في قبضة أوروبا لتتحوّل بسبب ذلك إلى مستعمرات أوروبية؛ الأمر الذي جعلها مجتمعات أوروبية خارج أوروبا بحكم قيامها على أساس النموذج الثقافي الأوروبي. غير أنّ الهدف من الوجود الأوروبي في الشرق الأقصى تمثّل في سعيهم من أجل التأثير في عقلية شعوب المنطقة، الأمر الذي أوجد لها قبولا سريعا من بعض سكان هذه المناطق. إنّ هذا النوع من الاتصال الأوّلي بين الغرب والشرق يمثّل في رأينا الإرهاصات الأولى للعولمة أو ما يمكن أن نسميه المركزية الأوروبية (Euro-Centrism). وإنّ أشهر بلاد الشرق التي تبنّت النموذج الأوروبي الغربي هي اليابان. لقد شرعت اليابان منذ البدء في تغيير كل أساليب التسيير الإداري، وطرق وأساليب القتال والحرب وتجهيزاتها وأسلحتها، وما إلى ذلك من "الإصلاحات" من أجل الانسجام والتكيّف مع الوافد الغربي إلى تلك الديار.

ونتيجة لذلك، شرعت بعض الأقطار الشرقية في محاكاة اليابان من خلال محاولة إعادة بناء أساليب تسيير

سوف نتفاعل مع الثقافات الأخرى، مع القوى الأخرى في العالم. وأمّا نحن في ماليزيا، فقد أقمنا طرقا وأساليب للتواصل مع مختلف المجتمعات والدول بشكل إيجابي وفعّال. وبهذا الأسلوب في التعامل مع الغير، نعرض أنفسنا على النماذج الثقافية الأخرى ليتمّ التواصل بشكل مثمر وفعّال.

والآن، عندما نتكلّم عن العولمة، فإنّنا نتحدّث عن مفهوم وفد إلينا من المجتمعات الغربية الغنية. أحب أن أشير إلى أنّه مهما كانت الأفكار الجديدة التي تفد إلينا، وبالخصوص تلك التي يكون مصدرها الغرب، نحتاج إلى أن نُخضِعها للتساؤل والنقد؛ لابد أن نكون ذوي عقلية ناقدة من أجل أن نكون نحن الذين نحدّد نوع الأثر الذي ينبغي أن تتركه هذه الأفكار في وسطنا.

إنّ للعولمة تأثيراً مزدوجاً. فقد يقلّل هذا التأثير من مدى حرّيتنا واستقلالنا وقراراتنا، في الوقت الذي قد يمكّننا من الاستفادة من مختلف أوجه التقدّم والتطوّر الحاصل في مناطق كثيرة من العالم. ومن أمثلة الآثار الإيجابية للعولمة ما وصل إليه العالم المتطوّر في مجال التكنولوجيا على مدى الزمان والمكان. فقد كنّا فيما سبق، من أجل الاتصال بأي منطقة في العالم أو إرسال برقية أو الاستماع إلى قطعة موسيقية، لا بد لنا من غرفة ضخمة مزودة بأضخم الوسائل والتجهيزات. بينما اليوم، فالعملية برمّتها تتمّ بجهاز بسيط محمول في الجيب مثل الهاتف النقّال. فهذا الجهاز مؤشّر واضح على ضخامة التطوّر الذي حصل في مجال تكنولوجيا الإعلام والاتصال. ولقد أصبح بإمكاننا أن نسافر جوّاً 12 أو 24 ساعة، لنصل إلى الجهة الأخرى من الكرة الأرضية ونتواصل مع قاطنيها بشكل مباشر.

هذا من أهم إنجازات العولمة، بحيث لم يصبح في مقدورنا أن نبقى منعزلين عن باقي مناطق العالم. وسواء أحببنا أم كرهنا، فإنّ الذي يحدث في الطرف الآخر من العالم لابد نتأثّر به بوجه من الوجوه. ولهذا، فعندما يصل إلينا العالم بهذا التطور التكنولوجي، فإنّ هذا الأخير يصبح في متناولنا، وفي مقدورنا أن نفعل به ما نشاء، كأن نساهم في تطوير بعض جوانبه لنجعل غيرنا من البشر يستفيدون من مساهمتنا نحن أيضاً. فنحن جزء من العالم، ومهما كانت طبيعة

مساهمتنا فيه فإنّ هذه المساهمة سوف تؤثّر بشكل من الأشكال في المناطق الأخرى من هذا العالم، والعكس صحيح أيضا. وبطبيعة الحال، فإنّ أثر العولمة إيجابي في أغلبه وهو الذي يتعلّق بالتطور الحاصل في التكنولوجيا بشكل عام. ولكن علينا أن نتذكّر دائماً أنّ أغلب ما في هذه التكنولوجيا يركّز على الصناعة العسكرية وبوجه خاص أسلحة الدمار الشامل، وآليات الحروب، وأدوات تقتيل الشعوب لأنّ أغلب بحوثهم ودراساتهم كانت منصبّةً على ما يمكّنهم من السيطرة على غيرهم وإن تطلّب الأمر قتلهم.

وعلى الرغم من الفوائد الجمّة لهذا التطور التكنولوجي وآثاره الإيجابية، فإنّنا لا نستطيع تفادي آثاره السلبية بدون جهد وعناء. وإذا كنّا لا نستطيع أن نصبح أقوياء مثلهم، ولو على المدى المنظور، فإنّه بإمكاننا أن نعدّ أنفسنا لندافع عن أنفسنا وأوطاننا. وعلى ما أذكر، فإنّ فيلسوفاً يونانياً هو الذي قال: "إذا أردت أن تحصل على السلم فلا بد أن تستعدّ للحرب"؛ ولهذا، فقد أعددنا أنفسنا للحرب، أو نحن بصدد ذلك. فقد اشترينا مؤخّراً غوّاصتين وبعض الطائرات الحربية وكل ما يلزم لذلك. لا أدري من سيكون خصمنا في هذه الحرب؟ ولكن إذا قرّرت القوى العظمى المستكبرة الاعتداء علينا أو احتلال أراضينا، أعتقد أنّه من الأشرف لنا أن نرفع سلاحنا و نقول لهم تعالوا فنحن قد بذلنا وسعنا من أجل الاستعداد للدفاع عن أنفسنا. وإلاّ فسوف يكون مصيرنا مثل مصير العراق، أين تمّ تدمير البلد بأكمله، وتدشين حرب أهلية لا نعلم متى تتوقّف. هذا من الآثار السلبية للعولمة حيث أصبح بإمكان أيّ جيش أن يتحرّك بأسرع ما يمكن والهجوم على أي نقطة في الكرة الأرضية وإنّ الشعوب التي لا تستعدّ للدفاع عن نفسها فسوف تسير إلى مصيرها المحتوم؛ ولا يمكن استثناء بلادنا من هذا المصير إذا توفّرت أسبابه.

ولكن من حسن حظّنا، كما أظنّ، أنّ حكوماتنا أدركت بذكائها وحكمتها في التعامل مع الشعوب والدول، أنّه من غير الحكمة التعرّض لهذه القوى المستكبرة بما يجعلها تتحرّش بنا لعلمها (أي، حكوماتنا) أنّ الكرة الأرضية أصبحت قرية صغيرة جدّاً وبإمكان خصومنا أن يتعرّفوا على مختلف خططنا للتحرّك ويتعرّضوا لنا بالأذى.

إنّ أساليب الحرب ووسائلها وأدواتها تطوّرت، ولم تعُد كما كانت من قبل. بإمكاننا استخدام الحرب الاستباقية الخاطفة التي يسمّيها الألمان "Blitzkrieg?,"، فلا وقت لإعداد عدة المواجهة، بل في ظرف زمني قياسي تجد البلد قد هيمنت عليه الجيوش الأجنبية. أتمنّى ألاّ يحدث هذا، غير أنّه يبقى احتمالاً وارداً في هذه الظروف التي طبعتها العولمة. والسؤال المطروح الآن: ما هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع مثل هذه الظروف؟ هل نتّجه إلى شراء السلاح لمواجهة هذه الأخطار؟ بإمكاننا أن نفعل ذلك؛ بل يمكن أن نشتري أحدث الأسلحة وآخرها اختراعاً على الرغم من تكاليفها الباهظة. لكن؛ لا أعتقد أنّ هذا هو القرار الأنسب في مثل هذه الظروف، لأنّني أرى أنّ الحرب ليست هي الطريق الأمثل لعلاج الأزمات والخلافات بين الأمم والشعوب. أعتقد أنّنا متحضّرون بالقدر الكافي الذي يؤهِّلنا للحوار لحضاري البنّاء، ولفض خلافاتنا في المحاكم بطرق هادئة من خلال نتائج البحث والتحقيق التي تتوصّل إليها هذه المحاكم. هذا هو الأسلوب الذي اتّبعته ماليزيا في التعامل مع ثلاث شكاوى قُدّمت ضدّها.

عندما ادّعت تايلاند أحقّيتها بملكية أجزاء من مياهنا الإقليمية وقالوا أنّنا ندّعي ملكية أجزاء من مياههم الإقليمية، فقد توصّلنا عن طريق الحوار الهادئ إلى توافق مفاده الاشتراك في الاستفادة من كل ما يمكن أن نحصُل عليه من خيرات من هذه المياه المشتركة. ولذلك، لم نفكّر في اللجوء إلى الحرب، ولم نلجأ إليها البتّة. إنّ هذا التصرّف ليس أقل من سلوك شعب متحضّر يتميّز بالقوة والحكمة، ويعرف كيف يتعامل مع الأزمات بما يناسبها ليخرج منها سالماً غانماً.

وبالمثل، في أزمتنا مع إندونيسيا عندما ادّعت ملكيتها لجزيرتي سيبادان Sipadan وليجيتان Ligitan ، فقد قرّرنا اللجوء إلى المحكمة الدولية التي وقفت إلى جانبنا. بطبيعة الحال، لم تكن إندونيسيا راضية بالحكم القضائي، ولكن ليس بالضرورة أن تكون كذلك، فالعادة أنّ المحكوم عليه يغلب عليه عدم الرضا بالحكم الذي لا يكون كما يريد.

حدث مثل هذا في أزمة جزيرة الحجر الأبيض Pulau Batu Putih، بيننا وبين سنغفورة. فقد قرّرنا أيضاً اللجوء إلى المحكمة.غير أنّه بسبب التلفيق الذي حدث في المعلومات التي قُدّمت

للمحكمة، كان الحكم في صالح سنغفورة. أنا لا أحب مثل هذه الأساليب في التعامل مع المشكلات بيننا، على الرغم من أنّني أفضّل التنازل عن حقّي بدلاً من الذهاب إلى الحرب مع سنغفورة باعتبارها دولة قوية، بل أقوى منّا، ولهذا، علينا أن نظهر الاحترام لمن هو أقوى منّا.

هذا مظهر من مظاهر العولمة، فإذا كنّا غير حكماء في التعاطي مع قضايا ومشكلات بلداننا ربّما كنّا سبباً في دماره من خلال اعتداء القوى المستكبرة على الضعفاء منّا. غير أنّه من جهة أخرى، ينبغي أن نتذكّر دائما أنّ هذا الوطن (ماليزيا) قد خطى خطوات كبيرة على طريق التقدّم. فقد نما بشكل ملفت للنظر؛ إذ أنّ المعدل السنوي للنمو قارب 7,8 في المائة وقد وصل في بعض الأحيان إلى 9 في المائة. لقد وصلنا إلى هذه الدرجة من النمو لأنّنا وبكل بساطة أصبحنا مؤهّلين لاقتحام الأسواق العالمية بمنتجاتنا. إذ لو انصب اهتمامنا على مجرّد الاكتفاء الذاتي لما كان ذلك كافياً لنتمكّن من اقتحام هذه الأسواق. وبسبب البعد العالمي للتجارة التي نمارسها أصبحنا قادرين على أن نبيع منتجاتنا للعالم كلّه، الأمر الذي جعلنا نجني أرباحاً طائلة من المنتجات المتنوعة التي نصنّعها في بلادنا بما في ذلك بطبيعة الحال، منتجاتنا من زيت النخيل والمطاط والقصدير. بدون هذه السوق العالمية ما كان لنا أن نصل إلى هذا المستوى الذي نتمتّع به من الغنى والرفاه، ومن ثم لم يكن في مقدورنا أن نصل إلى هذا المستوى من النمو الاقتصادي.

ينبغي علينا أن نتعامل مع كل بلدان العالم لأنّ أسواقها ضرورة لاقتصادنا. يجب على كل الماليزيين أن ينتبهوا إلى هذه المسألة وأن يعيروها كل الرعاية والاهتمام. إنّ نمو اقتصادنا، أعني بلدنا، يتوقف على مدى حسن اقتحامنا للأسواق العالمية بمنتجاتنا، وإلاّ فطريق النمو والتقدّم مسدود أمامنا. وبنسبة سكانية تقدّر بـ 27 مليون نسمة، لم يكن لنا لنحقّق هذا التقدّم بسرعة ولن يكون بإمكاننا أن نتقدّم في المستقبل إذا لم نعرف كيف نقتحم هذه الأسواق العالمية بمنتجاتنا، وإذا الم نعرف كيف نقيم علاقات صداقة جيّدة ومثمرة مع باقي شعوب العالم لأنّها تمثّل بالنسبة إلينا الأسواق التي نسوّق فيها منتجاتنا.

بطبيعة الحال، سوف نصبح من جهة أخرى سوقاً لباقي دول العالم؛ هذا

ما ينبغي على كل الماليزيين أن يتذكّروه دائما. إنّ مستقبلنا يتوقّف على استعدادنا للرفع من نسبة تبادلنا التجاري مع باقي دول العالم بالتصدير والاستيراد؛ ولكن ينبغي أن يغلب التصدير على الاستيراد لأنّنا كلما زادت صادرتنا زادت مداخيلنا وأصبحنا أغنياء أكثر. غير أنّ نجاح صادراتنا يتطلّب منّا منتوجات ذات جودة عالية في مستوى منافسة الإنتاج العالمي.

كما أنّ هناك اهتماماً في ماليزيا بالتربية والتعليم. غداة الاستقلال، لم نكن نملك إلاّ جامعة واحدة. أمّا اليوم فقد أصبح عددها ستّين (60) جامعة. وعلى ما أظن، ثلاثين منها عمومية والباقي جامعات خاصة. ويظهر أنّ مواصلة الدراسة في الجامعة أصبح رغبة أغلب المواطنين؛ فالتعليم الجامعي مكسب إيجابي لأنّه طريق إلى تنمية وتدعيم المؤهلات العلمية التي تسمح للفرد بالكسب المادي الأفضل من خلال إنتاج ما يمكن أن نصدّره للخارج.

إنّ عجزنا عن حسن الاستفادة من التكنولوجيات الجديدة وتوظيفها سوف يمنعنا، بطبيعة الحال، من الاستفادة من الجوانب الإيجابية للعولمة. ولكن بسبب نظامنا التربوي المحكم الذي وفّر الفرص لكل المواطنين للتعلّم واكتساب المعرفة، أصبحنا قادرين على الاستفادة من كل ما وفّرته الاختراعات الجديدة التي وصلت إلينا من مختلف بقاع الأرض؛ كما أصبحنا قادرين أيضاً على إنتاج أشياء تستخدم آخر ما توصّلت إليه العلوم والتكنولوجيا وأصبحنا بالتالي قادرين على تصديرها إلى الأسواق العالمية.

إنّ استيعابنا للعولمة وحسن توظيفنا لها يتوقّف أساسًا على مدى قدرتنا على تحصيل المعرفة التي تمكّننا من إنتاج ما يمكن عرضه على الأسواق العالمية في إطار مشاريع التبادل التجاري مع باقي دول العالم. وبالطبع، وفي أثناء ذلك، لابد من اللجوء إلى استيراد ما نحن بحاجة إليه من أجل التصنيع والإنتاج ومن ثم التصدير مرة أخرى.

وبناء على ما سبق، فإنّ السؤال الذي ينبغي أن نطرحه على أنفسنا الآن: كيف يمكن لنا أن نعدّ أنفسنا لعام 2020 هل يمكننا أن نجعل من 2020 السنة التي نعلن فيها بكل اعتزاز أنّنا، ماليزيا،

أصبحنا دولة متقدّمة؟ هل يمكننا أن نفعل ذلك؟ في هذه اللحظات أستطيع أن أقرّر وأقول: نعم، نستطيع، ولكن ينبغي أن تعدّوا أنفسكم من الآن لهذا اليوم المنشود. أنتم في حاجة إلى تحصيل العلم والمعرفة؛ فهما شرطان أساسيان لذلك. فلقد كنّا أكثر جرأة عندما أقدمنا على تصنيع سيارة وطنية .

وكما تعلمون أنّ بلدا نامياً مثل ماليزيا في ذلك الوقت وبنسبة سكانية تقدّر بحوالي 12 مليون نسمة قرّر صناعة سيارة وطنية. لقد شاهدنا استهزاءً كبيراً بنا في مناطق عديدة من العالم؛ غير أنّنا على الرغم من كل ذلك، مضينا قُدُماً ولم نبالِ بالتثبيط الذي كان مقصوداً من أجل إفشال مشروعنا الوطني، واستطعنا رغم كل ذلك أن ننتج أوّل سيارة وطنية . لكن لازالت صناعتنا الميكانيكية في هذا المجال مقتصرة في أغلبها على الاستجابة لحاجات السوق الوطني. في حين أنّ المطلوب هو ضرورة التفكير في اختراق الأسواق العالمية بجدارة واقتدار من خلال إنتاج نوعي ذي معايير عالمية. لذلك، لابد من التفكير في مختلف الأساليب والآليات التي تمكّننا من ذلك بشكل يجعل صناعة السيارات عندنا من أهم وسائل دعم وترقية الرأسمال الوطني؛ فصناعة السيارات من أجل الطلب المحلي فقط ليس كافيا في هذا المجال ولن يساهم بشكل فعّال في دعم مشروع التنمية الوطنية.

ومن أجل أن نصل إلى هذا المستوى من الفعّالية في الإنتاج، ينبغي أن نركّز على تحصيل العلوم والمعارف التي تساعدنا على التحكّم في التكنولوجيات الجديدة لنجعل من سياراتنا في مستوى منافسة ما هو موجود في الأسواق العالمية التي نتعامل معها. بهذا النوع من التفكير والأداء، يمكننا أن نساهم في تطوير بلادنا. فإذا نظرنا مثلاً إلى كوريا (الجنوبية) فإنّنا نجدهم ينتجون ملايين السيارات وأنّ أغلب ما ينتجونه إنّما يباع في الأسواق العالمية خارج كوريا. هل يمكننا، نحن، أن نفعل ذلك؟ هناك إمكانية لفعل ذلك؛ ولكن بشرط أن نتحكّم في التكنولوجيات الجديدة المتعلّقة بصناعة السيارات الكهربائية أو تلك التي تسير بالطاقة الشمسية أو غيرهما لنصبح قادرين على أن نبدأ من حيث بدأ هؤلاء.

وبالنظر إلى طبيعة المحرّكات المستخدمة حاليا في صناعة السيارات،

فإنّني أعتقد أنّنا لا زلنا بعيداً عن هذا المستوى من الكفاءة والإبداع. أعني أنّهم بدأوا تصنيع هذا المحركات والسيارات الحاملة لها بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر (S1890) بينما نحن بدأنا عام 1985 فقط ، بعد حوالي قرنٍ من الزمان تقريبا بعدهم. فقد بدأنا بما هو قديم بالنسبة إليهم. لكن إذا انصب اهتمامنا على السيارات الكهربائية وغيرها من النماذج المعاصرة فيمكن القول أنّنا قد وضعنا أنفسنا في نفس المستوى من المحاولة لصناعة السيارات المتقدّمة. ولهذا، فهناك إمكانية لنكون في مستوى منافسة الكبار، رواد صناعة السيارات في العالم.

وفي سياق الحديث عن رواد صناعة السيارات، يمكن أن ننوّه على سبيل المثال بالإنجاز الذي حقّقناه مؤخّراً من خلال سيارة بروتون Proton التي حصّلت على المراتب الأولى في سباق برايتون (Brighton) لندن (London) بالنظر إلى أنّ المشاركين في هذا السباق استخدموا سيارات كل من تويوتا (Toyota) ونيسان (Nissan) وميتسوبيشي (Mitsubishi) وفلكسفاغن (Wolkswagen) ومرسيدس (Mercedes) وفورد (Ford). وبمنافسة كل هذه الأنواع الناجحة من السيارات، فقد حصلنا على المرتبة الأولى. ولهذا، فهناك إمكانية في هذا المجال على الأقل لنطوّر كفاءاتنا ونظهر مدى قدرتنا على المنافسة مع الكبار. غير أنّه لتحقيق هذا الهدف نحتاج إلى الاستمرار في تحصيل العلوم والمعارف والمهارات، ومواكبة الجديد في المجال الذي نريد أن نبرز ونتفوّق فيه. كما ينبغي أن ندرّب أنفسنا على الرغبة في البحث والتنقيب عن الجديد باستمرار بالشكل الذي يقودنا إلى مستوى القدرة على منافسة الأسواق العالمية بجدارة واقتدار.

ولكن بطبيعة الحال، لا ينبغي أن يفهم من كلامي هذا أن يقتصر اهتمامنا على صناعة السيارات فقط؛ بل هناك مجالات أخرى لابد من الاهتمام بها فهماً وتطويراً، مثل صناعة الإلكترونيات وتكنولوجيا الإعلام والاتصال والتجارة الدولية. فنحن قد بدأنا من حيث بدأ هؤلاء المتقدّمون في هذه المجالات، وبإمكاننا التوصّل إلى صناعة منتوجات مثل البرمجيات (Software) ما يمكن أن نعرضه للبيع في الأسواق العالمية كشكل من أشكال المنافسة مع الدول الأخرى.

ولكي نصبح بلدًا ذا أبعاد وامتدادات عالمية يتعامل مع ظاهرة العولمة بوعي وإدراك وبشكل هادف، لابد لنا من أن نعدّ أنفسنا تربوياً وعلميًا؛ لابد لنا من اكتساب المعارف والمهارات اللازمة لذلك. وإلاّ فلن يكون بإمكاننا أن نتطوّر وننمو بمجرّد الاعتماد على اقتصاد يتّجه بمنتوجاته إلى سوق محدودة المجال، السوق المحلية، إلى 27 مليون نسمة فقط، هذا لا يكفي.

هذا هو مفهوم العولمة الذي ينبغي أن يفهمه الماليزيون استعداداً لعام 2020. في هذا العام، يجب أن ينظر الماليزيون إلى أنفسهم على أنّهم جزء مهمّ وفعّال من هذا العالم الذي يعيشون فيه؛ وأنّ مجال تحرّكهم الاقتصادي هو العالم كلّه. وأنّه مهما يحدث في العالم من جديد في مجال التكنولوجيا لابد من أن يكونوا في مستوى فهمه فهماً صحيحا وأن يصلوا إلى مستوى امتلاك القدرة على تطبيقه في تطوير أنفسهم من أجل أن يصبحوا قادرين على منافسة الآخرين.

أمّا بالنسبة إلى النخبة السياسية عندنا، فلابد، بطبيعة الحال، أن تكون على حذر من قبول أي تفسير للعولمة دون التأكّد من خلفياتها الفكرية والسياسية والاقتصادية. يجب أن نتذكّر دائما أنّ مفهوم العولمة السائد الآن ليس من وضعنا نحن؛ بل وفد إلينا من خارج حدودنا الثقافية (Cultural Boundaries). لقد وفد إلينا من البلاد الغنية. وطبيعي أنّهم لما تبنّوا فكرة العولمة ركّزوا على الآليات التي تجعل هذه الفكرة خادمة لمصالحهم، وبالمقابل، ليس بالضرورة أن تكون خادمةً لمصالحنا، نحن في البلدان الفقيرة. ولهذا، نحن نعتقد أنّ التفسير المقدّم حاليا لفكرة العولمة ليس إلاّ لخدمة الدول الغنية وتدعيم الثراء الذي يتمتّعون به وليس نحن. ولهذا، لا نستطيع أن نتقبّل هذا التفسير إطلاقاً؛ بل ينبغي أن نُخضِع هذا التفسير للدراسة، ونعمل من أجل إعادة صياغته بشكل جديد، ووضع سياسات وقوانين دولية بإمكانها أن تحمينا نحن من تفسيراتهم غير المقبولة لمفهوم العولمة.

أصارحكم بأنّني غالباً ما فكّرت في أنّه من الضروري لنا أن نقوم نحن بصياغة مفهومنا الخاص للعولمة؛ لا ينبغي لنا أن نتقبّل تفسيرهم على إطلاقه، وبدون أن نجرِي عليه أيّ تغيير

أو تعديل. عندما كنت رئيساً للوزراء ، تعوّدتُ على أن أصرّح بعبارات غير لائقة في نظر البعض، أمّا الآن فأقول إنّ العولمة ليست أكثر من التدفّق الحر لرؤوس الأموال؛ ممّا يعني أنّ انفتاحاً غير مقيّد للحدود من أجل الاستثمار في أي بلد، ولإقامة تسهيلات للإنتاج ومن ثم التصدير بدون أيّ تعطيل بسبب السياسات القائمة في البلدان المختلفة. لأنّه في الماضي، كانت هناك قوانين وتشريعات بإمكانها أن توقِف المنتجات الأجنبية وتمنعها من الدخول إلى هذا البلد أو على الأقل فرض رسوم باهظة عليها لحماية منتجاتنا من الكساد.

غير أنّ رد فعل هؤلاء كان أن رفضوا موقفنا هذا، فاشترطوا إزالة أيّ نوع من الرقابة على المبادلات التجارية، وأنّ الحدود تُفتَح على مصراعيها بشكل يسمح بدخول أي شيء إلى البلد، ومن ثم بناء على ذلك، نضطرّ إلى أن نسمح بأن يباع أي شيء في بلادنا دون أي قيد أو شرط.

هذا هو فهمهم وتفسيرهم للعولمة، وكيف ينبغي أن نتعامل معها. والآن، لماذا جنحوا إلى تفسير العولمة بهذا الشكل؟الجواب واضح، لأنّه أقرب طريق لخدمة مصالحهم؟ إنّهم يملكون رؤوس أموال ضخمة وكثيرة، ويريدون أن يعثروا على فضاءات لاستثمارها . كما أنّهم يملكون تكنولوجيا وإنتاجا صناعيا كثيرا ويريدون أن يسوِّقوه في العالم كما هو الشأن في أسواقهم، وبدون أدنى قيد قانوني. إذن، يفسرون العولمة بالشكل الذي يميل إلى خدمة مصالحهم لا بما يخدم مصالحنا نحن.

الآن، دعونا نعبّر عن وجهة نظرنا في هذه المسألة. ما الذي يمكن أن نستفيد منه في هذه الوضعية؟ حقيقة، إن ماليزيا ليس بإمكانها أن تستفيد من هذا الوضع كثيراً. نحن لا نوافق على هجرة العقول الماليزية إلى الخارج لأنّنا نريد لها البقاء هنا ونضمن لها العيش الرغيد الذي يناسب مكانة أصحابها العلمية والاجتماعية وبشكل لا تغريهم العروض التي تُقدّم لهم من دول أخرى. ولكن الذي أؤكّد عليه أنّ ماليزيا تزخر بالعقول المفكّرة المبدعة؛ وبسبب العروض المُغرية والأجور العالية التي تقدّم لهم من هنا وهناك، فإنّ عدداً منهم هاجر طلباً لذلك. فنحن لا نستطيع أن نمنعهم من ذلك مادام الوضع هكذا، وضع تنافسي في كل شيء، والعالم في ظل العولمة مفتوح

لكل مجالات المنافسة. والكفاءة هي معيار النجاح في هذه المنافسة.

وإذا نظرنا مثلاً إلى الصناعة الصيدلانية، فإنّ الشركات المنتجة للأدوية يجب عليها أن تذهب بعيداً في مجال البحث العلمي المتخصّص من أجل تطوير مشاريعها وتنويع تجاربها لعلها بعد المحاولة الألف قد تصل إلى اختراع نموذج للدواء يمكن أن يسوَّق في الأسواق العالمية. وربّما تكون عائدات الدواء الواحد، إذا أحسنّا تحديد سعره في السوق، قادرة على تعويض كل تكاليف التجارب والأبحاث التي تمّ إجراؤها من أجل التوصل إلى اختراعه عبر سنوات طويلة. وهذا صحيح، فإذا أردت أن تعالج مريضا بالإيدز (AIDS) فإنّ تكاليف العلاج والدواء باهظة بحيث لا يمكن للفقراء من الأفراد أو الدول أن يتحمّلوها؛ كما أنّه لا يُسمَح لهم بإنتاج مثيلاتها نظرا لقوانين حقوق الملكية على الرغم من أنّك لو تنتجها سوف تكون رخيصة السعر بالمقارنة مع النسخة الأصلية وفي متناول الأغنياء والفقراء من بلدنا. إنّهم يرفضون لنا ذلك لأنّهم دفعوا أموالاً باهظة في مجال البحث من أجل التوصّل إلى اختراعه. إنّهم يريدون قبل كل شيء استرجاع ما أنفقوا من أموال في سبيل ذلك.

دعنا ننظر الآن من جهتنا نحن. فقد درّبنا وعلّمنا الملايين من الطلبة. غير أنّ من بين كل هؤلاء الذين قد يظهر عليهم التفوّق والتميّز قليل؛ ربّما عشرة، عشرون، مائة. غير أنّ المهم هو أنّه يجب العمل من أجل أن يصبح هؤلاء المائة من المتفوّقين في مستوى القدرة على مساعدتنا على بلوغ أهم أهدافنا، الاستعداد لعام 2020. لكن الذي نخشاه هو أن ينحرفوا عن هذا الهدف ويميلوا إلى الاهتمام بخدمة مصالحهم الخاصة.

الآن، وقياساً على مثال شركات صناعة الأدوية الذي سبق أن ذكرنا، فقد قلنا أنّها تعمل ضمن خطّتها في التسويق من أجل أن تعوِّض تكاليف الدراسات والأبحاث العلمية من خلال ضبط سياسة أسعار دقيقة ومحكمة، فالشأن كذلك بالنسبة إلينا، ينبغي أن نخطّط من أجل أن نصل إلى مستوى القدرة على تعويض تكاليف التدريب والتعليم لملايين المتعلّمين من خلال حسن استثمارنا لتلك الفئة النابغة من مجتمعنا هنا في بلدنا أو في الخارج، لأنّنا استثمرنا

مليون طالب ولم نحصل إلاّ على مائة طالب متفوّق فقط، ولم يبق لنا في بلدنا إلاّ هؤلاء من غير المتفوّقين. فهؤلاء المتفوقون ينبغي أن نفكّر في كيفية استثمارهم بالشكل الذي يعوّض لنا كل التكاليف التي تمّ إنفاقها من أجل تعليم وتكوين وتدريب الملايين من المتعلّمين الماليزيين.

والذي أحب أن أؤكّد عليه هو أنّنا إذا أردنا أن نعدّ أنفسنا للمستقبل، ينبغي أن نعمل على تربية الأجيال على اكتساب العقلية الناقدة التي تتعامل مع الأشياء بنظرة المتفحّص من أجل التوصّل إلى الفهم الصحيح للأشياء والحكم الصائب عليها والتعامل السليم معها. فإذا قيل لنا عن شيء مقترَح علينا أنّه جيّد وظهر لنا أنّه ليس كذلك فينبغي أن نقول: آسف لا نقبله. ولهذا، فإنّه في عام 1997 و1998 قلنا لصندوق النقد الدولي أنّنا لا نقبل "الأفكار الجميلة" التي اقترحتموها علينا. فكونوا ناقدين لكل ما يُعرَض عليكم لتكونوا عام 2020 في مستوى التعاطي مع مشكلات العولمة بفعالية وإيجابية وتميّز.

حـــوار؛

دومينيـــك فينـــر

صدمـــة التـــاريخ
الديـــن والذاكـــرة والتاريـــخ

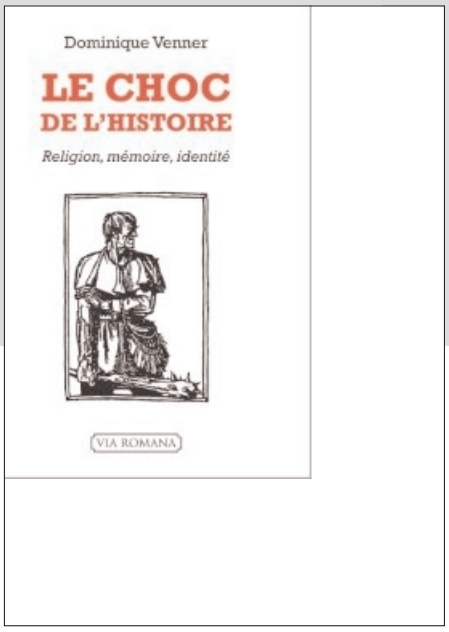

حاوره: لور ديستري

ترجمة: محمد قماري

في كتابه الجديد يؤكد دومينيك فينر، بأن العالم قد دخل حقبة غير مسبوقة، لقد حان الوقت الذي يتوجب فيه على الأوربيين أن يواجهوا تحديات قاتلة، فما شروط المواجهة؟

○ يطلع على القراء، يوم 15 سبتمبر كتابكم الجديد: "صدمة التاريخ"، الذي تولت نشره منشورات فيا رومانا (Via Romana)، ما سر اختياركم لهذا العنوان، وماذا يقدم؟

■ صدمه التاريخ نحن نعيشها دون أن نفهمها، وهو ما يحدث في الغالب على هذا النحو، فلا ننتبه إلا بعد مضي الوقت لوقع التغيرات، فلقد وقعت صدمات تاريخية في عصور سبقت عصرنا الحاضر، وواجهت تحديات كبرى، كالحروب (médiques) عند الهيلينيين.

وفي القرون المعاصرة والحديثة، أحدثت صدمات كبرى مدوية ردات فعل طبعت تطور الأفكار. ميكيافلي، مثلا، ولد إذا صحَّ التعبير، بوجود اضطرابات فلورانس وايطاليا نهاية القرن الخامس عشر، ومونتانيه (Montaigne) ففي حروب الأديان، وهوبس (Hobbes) مع الثورة الأولى في إنجلترا، وكارل شميث (Carl Schmitt) بانهيار ألمانيا عقب معاهدة فرساي[2]، وصومائيل هنتغتون (Samuel Huntington) من العالم الجديد الذي أعقب الحرب الباردة.

○ ما مظاهر الصدمة التاريخية الجديدة في واقعنا المعاصر؟

■ عندما تنحل معتقدات قديمة وتزول، فذلك علامة على تحوَّل تاريخي، سأقدم مثالا، ضربه الكاتب جون رسبيل (Jean Raspail)، فهو مع ما لديه من حدس وتنبؤ قد بيَّن أحد أشكال القطيعة الراهنة. فخلال إجابته عن أسئلة أحد الصحافيين عن النجاح الذي حققته الطبعة الجديدة من روايته معسكر القديسين (Camp des Saints)، قال: بأنَّ صد زحف المهاجرين، يقتضي الصرامة، لكن ذلك، كما أضاف، مستحيل، لماذا؟ "لأن رحمة المسيحية ترفضه، وكأنَّ الرحمة المسيحية بمعنى آخر تسوقنا إلى الكارثة!"[3] . والذي يقول هذا الكلام كاثوليكي، لكنه تنبه فجأة إلى أن استمرارية بقائنا تقتضي منَّا أن نتخلص من جملة مهمة من ثقافتنا المسيحية التي تطبع اللاشعور فينا وتطبع سلوكياتنا. وبهذا القبيل من التجديد يمكننا قياس التحوَّل التاريخي.

○ هل يمكنكم تفصيل هذا التحوَّل؟

■ منذ تراجع أوربا المريع الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، وأؤكد عن المريع، ومنذ غياب السيادة الوطنية، واجه الأوربيون صدمة التاريخ والتي تتطلب إجابات جديدة، نعرف مثلا، أن الهيمنة الأمريكية قد جلبت معها عولمة الاقتصاد لصالح ''قروش'' المال على حساب الشعوب، يضاف إلى هذا الوباء الآثار غير المحسوبة للهجرة (الغزو) نحو أوربا. ويجب أيضا أن نضع في الحسبان نهوض القوى القديمة التي ظننا أنها قد ماتت، مما يحوِّل وجه العالم ليس من الناحية الجيو- إستراتجية فقط.

○ عند حديثكم عن أوربا والأوربيين، ماذاتقصدون؟ الاتحاد الأوربي؟

■ بكل تأكيد لا، فأنا لا أقصد أيا من المؤسسات السياسية، لكن أقصد حضارتنا التي تمتد إلى آلاف السنين، لهويتنا، لبعض طرائقنا ''الأوربية'' في التفكير والإحساس التي تعبر الأزمان.

○ يلاحظ أن استعمالنا لكلمة الحضارة مقابل الدولة البدائية أو البربرية، ولكنكم تستعملون الكلمة بمعنى آخر؟

■ اليوم، كلمة حضارة هي مرادف للهوية وللديمومة، لقد أعطى المؤرخ فرديناند بروديل Fernand Braudel لهذا المفهوم تعريفا نستطيع أن نذكره: ''الحضارة هي استمرار، وحتى عندما يتغير ولو بصورة عميقة تحت تأثير دين جديد، فإنه يتلبس قِيَّمًا قديمة تغلغلت خلال تلك الحضارة، وتبقى هي مكوِّنها''(4). وكل كلمة في هذا التعريف لها وزنها، فاستمرار القيم الأصيلة الضاربة في القدم، هو عربون استمرارهم في حاضرهم.

○كتب الباحث في الإسلاميات رينه مارشند *René Marchand* **أنَّ الحضارات الكبرى ليست مناطق على كوكب، لكنها كواكب مختلفة، هل توافقون هذا التصوير؟**

■ يبدو لي أنه تعبير موفق جدا، تماما بالنسبة لحضارة الأوربيين، والحضارات الصينية، والهندية، والحضارة السامية والاسلامية في

المشرق، وحضارة هنود أمريكا، كلها ذات أصول ضاربة في القدم، وأحيانا تمتد إلى ما قبل التاريخ. وهي ترتكز على تقاليد خاصة تعبر الأزمنة في صور متغيرة، تتكون من قيم روحية تبني السلوكيات وتغذي التصورات. فعلى سبيل المثال، إذا كان النشاط الجنسي ببساطة ظاهرة كونية كفعل الغذاء، فإنَّ العلاقة بين الجنسين مختلفة باختلاف الحضارات، كاختلاف التصور حول قضية الأنثى، وفن الطبخ والعمارة والموسيقى، هذه الملامح هي انعكاس لبعض مناحي البنية الروحية، التي تنتقل بالوراثة الكامنة (atavisme) أكثر من انتقالها بالاكتساب.

نحن ندرك أن تأثير الديانات الجديدة، يمكن أن يغيِّر التصورات والسلوكيات، لكن الوراثة الكامنة عند الشعوب يمكنها أن تحوِّل أيضا الأديان الوافدة، فمثلا نجد أن البوذية في اليابان أصبحت ذات محتوى حديدي غير موجود في الصين، ونستطيع أن نقول أن لكل شعب آلهته الخاصة به النابعة من واقعه، والتي تستمر في الحياة حتى عندما نظن أنها نسيت، إنها هي التي تجعلنا (الآلهة) على ما نحن عليه، لا يضاهيها في ذلك شيء.

إنها هي، مصدر تقاليدنا الخالدة، توحد رؤانا في تصور كيف نكون رجالا وكيف نكون نساء، في مواجهة: الحياة والموت، والحب والتاريخ والقدر، ودون استشعار هذه التقاليد، فإننا سنغدو هباء منثورا، ونزول بانهيارنا الداخلي ونذوب في دنيا يحكم أمرها غيرنا.

○ لقد تحدثتم عن "بنية روحية، تنتقل بالوراثة الكامنة (atavisme) أكثر من انتقالها بالاكتساب"، بمَ تفسرون أن الأمريكيين من أصل أوربي قد قطعوا صلتهم بالتقليد الأوربي ليؤسسوا عالما جديدا يقابله؟

■ إنَّ تفكيري ليذهب لملاحظة مهمة جاءت من المختص الجيوسياسي النمساوي جوردي فون لهوسن (5) Jordis Von Lohaussen فلقد سجل أنَّ ألمان نزحوا إلى بعض مناحي القارة الأوربية، في روسيا مثلا، بقوا

باستمرار ألمانيين حتى بعد قرون من هجرتهم، على عكس ذلك، فإنَ جيلا واحدا يكفي ليزول الشعور بالانتماء الألماني عند مهاجرين ألمان إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ويصبحون أمريكيين كبقية الآخرين. إن هذا يطرح إشكالا صعبا لا يمكن الإجابة عنه في جملتين، وهذا السؤال يُظهر أن الأمر لا يتعلق فقط بأصل ''الجنس''، كما قد يتبادر للذهن. فالأمريكان وقد جاؤوا من أوربا قد احتفظوا بخواصهم ''الحيوانية'' لأصولهم: الطاقة، العزيمة الصلبة أو المقاتلة، وروح الإبداع..لكن ''تصوراتهم'' تغيرت بسبب حلولهم في العالم الجديد، وهذا راجع دون ريب للإمتثالية conformisme القاهرة للمجتمع الأمريكي، التي أجاد توكفيل وصفها.

المؤكد أنَّ تنقية العقول يعود أيضا، لرسوخ الحلم الإنجيلي عند مؤسسي أمريكا، الذين نقلوا قناعتهم بأن يكونوا ''الشعب المختار'' الجديد المكلف بأنْ يمد العالم أجمع ''روح الرأسمالية''، كما ورد في عبارة ماكس ويبر (Max Weber 6)، ولا ننسى أن الورد اليومي للإنجيل إجباري في المدارس الأمريكية، تماما كالقسم على العلم ذي النجوم. ومع مرور الوقت أصبح ''التصور'' الديني للمؤسسين هو تصور غالبية المهاجرين، وهذا الدين السياسي يقضي بالقطيعة مع كل التقليد الأوربي الارستقراطي المأساوي.

○ وماذا عن بقية العالم؟

■ هنالك، الأمور تسير على شاكلة لا تدور يخلد الأمريكيين إلا قليلا، ليس أكثر من الأوربيين على كل حال، ولفهم هذه الحقيقة، ذكرت في كتابي شهادات مستوحاة من التجربة الفرنسية، منها على سبيل المثال تلك التي جاءت من دليل بوبكر، عميد مسجد باريس، الرئيس السابق للمجلس الفرنسي للديانة الإسلامية، فالإسلام كما أوضح: هو''في الوقت ذاته دين وأمة، شريعة وحضارة.[i] ليس المسلمون هم من يطبق قواعد الإسلام الخمس وحسب، ولكن كل من ينتمي لفضاء هذه الهوية''(4). والكلمة الهامة هنا، هي كلمة هوية، فهذا يعني أن الإسلام ليس دينا وحسب، ولكنه أيضا أمر آخر إضافة لكوته دينا هو: ''أمة وشريعة

وحضارة".

وهذا يفاجئ من يكون متشبعا بالثقافة المسيحية، ببعدها العالمي والفردي، على الرغم من أن ديانات أخرى، منها الإسلام كما ذكرت، أو اليهودية، وأيضا الهندوكية أو الكنفوشية، ليست ديانات وفقط، بالمعنى المسيحي أو اللائكي للكلمة، بمعنى أنها علاقة فردية بين العبد وربه، ولكنها هويات وشرائع وأمم.

○ هذا التصور الجديد للهوية، هل يساعد الأوربيين على إعادة بناء أنفسهم؟

■ نعم، اعتقد أنه يساعدهم في إعادة إيجاد أواصر هويتهم القوية، بدلا من دين فردي أو غائب.

○ أية أواصر؟

■ أولا يجب إيقاظ أواصر ذاكرة الهوية، أواصر قادرة على تسليحهم معنويا في مواجهة تهديد واضح جلي باندثارهم إلى الذوبان في هذا الخليط الكوني وظاهرة "البرزلة" brasilisation. فيكونوا كالآخرين الذين يعرفون بأبناء شيفا Shiva، أو أبناء محمد، أو إبراهيم أو بوذا، فليس قليلا أن نعرف بأبناء وبنات هومير Homère، إلييس Ulysse و بنيلوب Pénélope.

○ كتبتم سنة *2008* في افتتاحية مجلة التاريخ الجديدة *"La Nouvelle Revue d'histoire"*، سفهتم القاعدة الشهيرة لموراس *Maurras*، "السياسة أولا"، وكتبتم أنه أمام التحولات الكبرى للمشهد والتي تفرضها الصدمة التاريخية، يجب أن يكون حديثنا مستقبلا، "الأمور الجوهرية أولا، والسياسة بعد ذلك"، فما دلالة ذلك؟

■ دلالة ذلك، أنَّ الشروط القديمة للعمل السياسي، كما كانت في أوربا وحتى الحرب العالمية الثانية قد انهارت وبفعل الأوربيين أنفسهم، بسبب

رعونتهم، دون احتساب المؤسسات السَّامة للقوى المهيمنة الجديدة، بداية بالولايات المتحدة الأمريكية. فمهما تكن من أحقيَّة للعمل السياسي، فليس بقادر أن يعيد للأوربيين الوعي القوي بما هم عليه. هذا الوعي الشامل بالهوية، بما في ذلك السياسة، هو من شأن المعاني الجوهرية أو العقيدية. بمعنى آخر لا يكتب لأي عمل سياسي النجاح دون أن يسبقه عقيدة الانتماء يمكنها أن تهديه في سيره. هذه الأفكار هي في صلب تفكيري من ومن بعيد، ورسمت خطوطها الرئيسة في الكتاب الذي نتحدث عنه.

○ الصدمة التاريخية تعود لقضايا تدرسونها منذ أمد بعيد، فما الذي جاء به كتابكم الجديد؟

■ هذا الكتاب عبارة عن تلخيص، أصيل وعملي لحوارات أدارها بولين لوكمت (Pauline Lecomte 7)، فالشعور بالتقلبات التاريخية هي في صلب أعمالي وأفكاري بصفتي مؤرخا منذ زمن بعيد، وتتضمن العلاقات بين الدين والهوية، استمرار وانبعاث الحضارات، بوصفها هي ذاتها كتعبير خاص عن هوية الشعوب على امتداد الزمن. ومن هنا نجد أن أوربا، عبر تاريخها الطويل، وحتى قبل أن تعرف باسمها هذا، قد وجدت إجابات عديدة، تتغذى من تقليد يمتد مصدره في أشعار هوميروس، تعبير هو أيضا إرث هندي أوربي من آلاف السنين.

المراجع

1. دومينيك فينر، صدمة التاريخ Le Choc de l?histoire، Editions Via Romana.

2. كارل شميث تفطن مبكرا للحقيقة الجديدة من زوال السيادة الوطنية، وانتهاء مفعول الميثاق الأوربي القديم في إنهاء الحروب بين الدول، والذي عوضه الحق الأمريكي في الحرب غير المحدودة وتجريم العدو. لقد ينى هذه الفكرة منذ سنة 1932 في دراسته مفهوم السياسة (Der Begriff des Politischen).

3. حوار نشر في L?Action française 2000 بتاريخ 19 ماي 2011 ص. 16.

4. فرديناند برودیل، كتابات تاريخية Écrits sur l?histoire، نشر باريس 1969 منشورات. Flammarion

5. جوردي فون لهوسن Jordis von Lohausen، امبراطوريات القوة Les empires et la puissance نشر باريس. 1985.

6. ماكس ويبر، أخلاقيات البروتستانت والفكر الرأسمالي L?éthique protestante et l?esprit du capitalisme نشر. 1920.

7. حوار نشرته لفيغارو يوم السبت 29 جوان. 2002.

8. بولين لوكمت، Le paradoxe vendéen, Paris, Albin Michel, 2004

المقال الأصلي:

« Le Choc de l'Histoire. Religion, mémoire, identité » Entretien avec Dominique Venner,

Propos recueillis par Laure d'Estrée Correspondance Polémia ? 14/09/2011

أخبار علمية:

إنسان آلي يبحث عن الحياة.. على المريخ

أطلقت وكالة الفضاء الاميركية (ناسا) السبت 26 نوفمبر 2011 ، باتجاه المريخ الإنسان الآلي ''كوريوزيتي'' Curiosity وهو الروبوت الأكثر تطورا بين المسبارات التي أرسلت لاستكشاف كواكب أخرى وهو بإمكانه أن يحدد للمرة الأولى ما إذا كانت بيئة الكوكب الأحمر مواتية في الماضي لتطور الحياة على سطحه.

الروبوت ''كوريوزيتي'' المعروف أيضا باسم ''مارس ساينس لابوراتوري'' Mars Science Laboratory (ام اس ال) يتوقع ان يحط على سطح المريخ في أوت 2012 بعد رحلة يقطع فيها مسافة 570 مليون كيلومتر. وقالت كولين هارتمان المديرة المساعدة للمهمات العلمية في الناسا ''انه روبوت استثنائي فعلا تتجاوز قدرته بكثير كل ما أطلقناه حتى الآن باتجاه كوكب أخر من النظام الشمسي''.

ومن المقرر إطلاق الروبوت من مركز كاب كانافيرال في فلوريدا (جنوب شرق الولايات المتحدة) عند الساعة15,02 بتوقيت غرينتش السبت بواسطة صاروخ ''أطلس "5.

Un robot à la recherche de la vie sur Mars

Revue : la recherche http://www.larecherche.fr/content/actualite-astres/article?id=30892

الجنين يحس بالألم في بطن أمه

وجدت دراسة بريطانية جديدة أن الأجنة تستطيع التمييز بين المحفزات المؤلمة واللمسة العادية منذ الأسبوع ال 35 من الحمل. وذكر موقع -ساينس ديلي- العلمي الأمريكي أن الباحثين بجامعة يونيفرستي كولدج لندن? وجدوا أن النشاط العصبي للدماغ يتغيّر تدريجياً من مرحلة عدم النضج إلى مرحلة مشابهة أكثر لحالة الرشد منذ الأسبوع ال 35 من الحمل، ما قد يشير إلى أن الدوائر العصبية تمكّن الأجنة من معالجة الألم كشعور منفصل عن اللمس.

نظر الباحثون في النشاط الدماغي لـ 46 مولوداً بمستشفى "يونيفرستي كولدج" الجامعي بينهم 21 مولوداً خدّجاً، ما أعطى العلماء فرصة قياس النشاط الدماغي بمختلف مراحل نمو الدماغ البشري، من فترة 28 أسبوعاً من الحمل إلى 37 أسبوعاً.

وقاس الباحثون النشاط الدماغي الكهربائي للمواليد لدى أخذ عينات دموية منهم، فسجّل ردة فعل على شكل "انفجارات عصبية" عامة للنشاط الكهربائي الدماغي.

وبعد الأسبوع 35 تغيّرت ردة الفعل بأدمغة المواليد إلى نشاط موضع بمناطق دماغية محددة، ما يشير إلى انهم باتوا يميّزون التحفيز المؤلم عن اللمس العادي.

وفي بحث طبي أمريكي مماثل وجد أن الجنين في بطن أمه لا يشعر بالألم إلا في الأسابيع الأخيرة من الحمل.

وجاء هذا البحث الذي نشرت نتائجه في "مجلة الرابطة الطبية الأمريكية" بناء على تشريع اتحادي مقترح في الولايات المتحدة. وبناء على التشريع المقترح يجب على الأطباء أن يخبروا الأمهات الراغبات في إجراء عمليات إجهاض أن الجنين يشعر بالألم اعتباراً من أسبوعه العشرين.

غير أن فريق البحث في جامعة كاليفورنيا قال إن الأجنة لا تتولد فيها حاسة الشعور بالألم إلا في مرحلة الحمل الواقعة بين الأسبوعين التاسع والعشرين والثلاثين. (مع العلم أن فترة الحمل الكاملة تدوم نحو 40 أسبوعا).

ويقول الباحثون إن المعلومات المتوفرة حاليا حول هذا الموضوع لا تزال شحيحة . ولكن الباحثين في البحث المنشور الوارد ذكره أعلاه يقولون "إن الإحساس بالألم يتطلب الإدراك الواعي بعامل حسي غير مستحب"، لا يمكن أن يحصل إلى حين نمو بعض الأنسجة التي تصل بين المِهاد البصري في المخ ولحاء المخيخ خلال فترة الجزء الثالث من فترة كامل الحمل . وعادة ما لا تظهر هذه الوصلات العصبية إلا بحلول الأسبوع الثالث والعشرين من الحمل ، وربما لا تبدأ في التشكل إلى إلا بحلول الأسبوع الثلاثين .

وقال الفريق الطبي الذي عمل برئاسة الدكتور كلارك روزين إن ردود الفعل العصبية واستجابات التوتر الهرمونية الموجودة في مرحلة مبكرة في مراحل نمو الجنين لا تعتبر دليلاً جليا أو كافيا على إدراك الألم .

وأضاف فريق البحث أنه لما كانت وظيفة إدراك الألم لا تبدأ قبل الفترة الثالثة (آخر ثلاثة أشهر) من الحمل، فإنه ليس إلزامياً إجراء مناقشات حول الآلام التي يفترض أن الجنين يحس بها أثناء الإجهاض الذي يحدث قبل نهاية الفترة الثانية (الثلاثة أشهر التالية) من الحمل . ويقول البروفيسور البريطاني تشارلز روديك إن نتائج البحث الأمريكي متناسقة مع ما هو معروف حتى الآن عن الآلام التي يشعر بها الجنين.

وقال روديك، أستاذ في طب الجنين في جامعة مستشفى كلية لندن، إن جميع عمليات الإجهاض التي تجرى في بريطانيا بعد الأسبوع الثاني والعشرين يتم خلالها إما حقن الجنين مباشرة بمادة توقف نبض قلبه، أو حقنه بتلك المادة عن طريق حقن أمه، وعليه فالجنين يكون تحت التخدير العام .

وأضاف يقول إنه كيّ يشعر الجنين بالألم يجب أن تكون المنظومة العصبية الأساسية موجودة لديه وتعمل. غير أن جوليا ميلينغون من منظمة "التحالف من أجل الحياة" البريطانية تقول، مشيرة إلى الإجهاض،

إنـهـا لـيست قـدرة الضـحـيـة عـلـى الإحساس بالألم هي ما يجعل القتل شيئاً يلقى المعارضة بل إنه انتهاك أبسط حقوق الفرد الإنسانية ألا وهو الحق في الحياة .

مـن جـهـة أخـرى، أظـهـرت دراسـة بريطانية جديدة أن الأجنة تبدأ بتحريك شفتيها وأنفها وحواجبها، وهي الحركات التي تشكل تعابير الوجه عند اجتماعها بدءا من الاسبوع الرابع والعشرين .

وذكـــر مـــوقـــع "لايـف سـايـنس" الأمـريـكـي أن باحثين في جامعة درهام البريطانية وجدوا أن حركات الوجه التي تشمل تحريك الشفتين والأنف والحاجبين مثلاً تزداد وتصبح أكثر تعقيداً مع نمو الجنين لتصبح أخيراً شبيهة بتعابير الوجه التي نلحظها لدى بعضنا البعض .

وقالت الباحثة المسؤولة عن الدراسة ناديا ريسلاند "ما وجدناه لأول مرّة هو انـه بـالإمـكـان الـنـظـر في تـوالي تـعـقّـد الحركات في وجه الجنين" .

وقـد شـاهـد الـباحـثـون من خلال صـور الـتـقـطـت لجنـيـنين في مـراحـل نموهما من الأسبوع ال 24 وحتى 35 من الحمل، تطور حركات غير مرتبطة ببعضها إلى مجموعة حركات معقدة مرتبطة بتعابير الوجه .

وقد تـتـبـع الـعـلـمـاء بشـكـل خـاص 19 حركة في الوجه مرتبطة بتعبير البكاء والضـحك، وتـبـيّـن مـع الـوقت ان هـذه الحركات بدأت تظهر ضـمـن مجمـوعـة أكثر تعقيداً.

وظهر ان الأجنة في الأسبوع الرابع والـعـشـريـن تبدأ عـلـى الأرجح بـالـقـيام بـحـركـة واحـدة في الـوجـه مـثـل تحريك الشفة، ومع مرور الأسابيع تبدأ بدمج الحركات مثل تحريك الشفة والأنف معاً.

وقـالت ريسـلانـد إن هـذه الحركـات الوجهية لا تعني ان للأجنة مشاعر، مضـيـفـة "يمكـنـنـا رؤيـة الـتـعـابير الـتي نميّـزهـا، لـكـن لا يمكـنـنـا الـقـول إن كـان الجنين يشعر وليس لديهم بعد الإدراك الضـروري ليشعروا" .

ولفتت إلى أن هذه المشاعر يكتسبها الأطفال مع دخولهم العالم الاجتماعي.

Les bébés ressentent la douleur in otero

-etilautca/tnetnoc/rf.ehcrehceral.www//:ptth

كتب

نساء سياسيات هل يغيّرن العالم؟

بسكال نفارو

مع مرور الوقت يتزايد حضور النساء في تولي مقاليد الحكم، داخل الأحزاب، تولي وزارات، رئاسة حكومات، وهذا يرمز ربما أكثر مما نتصور لدخولهن حلبة التاريخ من بابها الواسع، لكن هل يوجد حكم نسائي؟

التصنيف الجنسي معرف برؤية المجتمع، وهي رؤية موجودة لدى كل واحد منا، من هنا ترافع الكاتبة الكندية بسكال نفارو Pascale orravaNفي هذا الكتاب على فكرة مفادها أن الحكم الأنثوي غير موجود في ذاته بهذا المعنى، لكن وجود عدد كبير من النساء في السياسة قد يغير قوانين تنظيمات ووسط العيش، لأنهن ينقلن في ممارسة سلطاتهن قيم المجموعة التي ينتمين إليها.

ووضعت الكاتبة في بداية الكتاب تأريخا لبدايات اتصال المرأة بالسياسة، لفهم أسباب التزامهن، سواء في كيبك (كندا) أم في غيرها من البلدان، وقامت بعدها بتشريح صورة الأمومة الجديدة في السياسة وفحصت الرهانات الإستراتجية: هل هي مختلفة عن سواها عند الرجل؟ وبحثت أيضا في المكان الذي تشغله "الأنثى" في السياسة.

نذكر أن الكاتبة قبل شروعها في كتابها استجوبت عشرين امرأة سياسية في كيبك وكندا عموما.

Les Femmes en politique changent-elles le monde?

Parution : 19 octobre ,2010 136 pages

الكلمات المسافرة: جسور تواصل ونقطة تلاقي الثقافات.

الباحثة الفرنسية ماري تربس

الاقتراض اللُّغوي يتحقق بهدف تجديد وتحديث المفردات وبذلك يكون ذرائعياً أو أسلوبياً، وإذا كان مبرراً تماماً فإنه لا يروق للجميع.

في هذا الكتاب المترجم من قبل الدكتور منصور نجم حديفي وراجعته أ. د لبانة مشوح، وقام بنشره المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر في دمشق التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تروي الباحثة الفرنسية ماري تربس، الاختصاصية في اللسانيات لنا، حكاية الكلمات الوافدة أو المسافرة إلى اللغة الفرنسية من لغات عدة، وتتوقف مطولاً عند رحلة الشرق وفضل العرب على الغرب عموماً، وفرنسا خصوصاً في نقل المعارف والعلوم.

الكتاب يسلط الضوء على تجربة اللغة الفرنسية في تجسيد التأثير والتأثر بالآخر، دون أن يكون للمسافة أو العرق أي دور في إقامة جسور التواصل بين الناس، مع أن المثاقفة عموما، والكلمات لا تسافر دون محمولها الثقافي والإنساني.

واللغة العربية واحدة من أهم اللغات التي رفدت اللغة الفرنسية بالعديد من الكلمات في مختلف مجالات الحياة، وقد اختارت المؤلفة أن تبدأ الرحلة من الشرق مبتكرة قصصاً حافلة بكلمات غريبة تشبه إلى حد كبير البطاقات البريدية التي ترسل من بعيد لتقاسم انطباعات عابرة.

وصفت ماري تربس الكلمات القادمة من الشرق بالشمس التي شعت على اللغة الفرنسية وكان للكلمات العربية النصيب الأوفر، إذ إنها تجاوزت المئتي كلمة في حين أن حصة كل من اللغتين الفارسية والتركية لم تتجاوز الخمسين كلمة يضاف إليها خمسون كلمة سانسكريتية وصلت إليها عبر الفارسية.

النقل المبكر للغة كان نقلاً علمياً مأخوذاً من الكتب، وقد تواصل عبر البحارة والتجار الذين كانوا يمخرون عباب البحر الأبيض المتوسط، فلم تعد الكلمات تسافر عبر الكتب بل أصبحت ترافق البضائع المنقولة في

المراكب وقد ساهم البحارة والتجار في إدخال عادات جديدة في حياة الغرب، وكانوا وسطاء بين الثقافيين بشكل كبير.

وتبعا للاحتلال الفرنسي لشمال إفريقيا، وصل نوع جديد من اللغة العربية المحكية في المغرب التي تم نقلها عبر الجنود الفرنسيين وقد بلغت أربعين كلمة.؟

في الوقت الذي كان الغرب يعيش عصر الظلمات وانحطاط الثقافة والفنون، كان الشرق يعيش حالة توهج وإشعاع فقد كانت بغداد هارون الرشيد المدينة الأغنى والأكثر ثقافة وبهذا يعود الفضل إلى الشرق في الانطلاقة الأدبية والعلمية والتقنية في أوروبا.

وفي مجال العلوم والمعارف كان العرب ناقلين متميزين وكشفوا عن براعة كتربويين من خلال تلقفهم لمعارف اليونان والهند وترجمتها إضافة إلى تقدمهم الذاتي في المجال العلمي، فقد تمكنوا من نقل هذا الإرث النفيس إلى الغرب، فضلاً عن عطاءاتهم في علوم الفلك التي كانوا يولونه أهمية خاصة، في هذا المجال تعترف (تربس) بأن الفضل يعود للعرب في تعليمهم طريق النجوم والاستدلالات الفلكية المفيدة جداً.؟

أما علماء الرياضيات العرب فقد أتاحوا فرصة اكتشاف لفظتي (الصفر والشيفر) اللتين تنحدران من كلمة عربية واحدة هي "الصفر" إذ شكل اعتماده تجديداً حقيقياً في علم الرياضيات لديهم، حيث تم الانتقال من النظام الرقمي اللاتيني إلى النظام الرقمي العشري العربي وانقلبت طريقة الفرنسيين في الحساب لتعتمد طريقة حساب الخوارزمي.

وفي الكيمياء تبين (ماري تربس) أن العرب قاموا بانجاز عمليات كيميائية أساسية ليس أقلها التقطير الذي تم اختراعه على يد كيميائيين عرب، إضافة إلى تقديمهم مستحضرات التجميل كهدايا للغرب وما حملته الكيمياء العربية من إغناء لقاموس الصيدلة والأدوية.

"مجلـــة معالـــم"

قواعد النشر بالمجلة

- "معالم" مجلة ثقافية فكرية تعنى بالترجمة، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بترجمة ونشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية.

- ترحب المجلة بمساهمة المهتمين بشؤون الترجمة من الأكاديميين والكتاب المتخصصين، وتقبل للنشر البحوث والدراسات والنصوص المترجمة ذات المحتوى التعليمي والثقافي، وفقا للقواعد التالية:

1. **أن يكون النص المرسل للنشر خاصّا بـ"معالم" ولم يسبق نشره من قبل.**
2. **أن يتبع المترجم عند نقل النص الأصول العلمية المتعارف عليها، منها مصدر النص، تاريخ نشره مع إثبات إحالات صاحب النص من مصادر ومراجع، والصور والخرائط إذا وُجدت.**
3. **يتراوح طول النص ما بين 4 إلى 12 صفحة مرقونة بخط** 14. simplified arabic
4. **قد ترى هيئة التحرير إدخال بعض التعديلات الفنية عند إخراج النص، أو بعض التعديلات في متن النص أو اقتراح مصطلحات بديلة مع الالتزام بإخطار أصحابها وأخذ موافقتهم قبل النشر.**
5. **المواد التي ترسل إلى المجلة، لا ترد إلى أصحابها نُشرت أم لم تُنشر، ولن تكون محل دعوى باسترجاعها.**
6. **ترسل المواد إلى عنوان المجلس الأعلى للغة العربية أو عبر البريد الالكتروني للمجلة:**

تقدم المجلة مكافأة عن المادة التي تقبل للنشر، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة، كما تقدم للمترجم 3 نسخ من المجلة.

إنسان آلي يبحث عن الحياة ..على المريخ

أطلقت وكالة الفضاء الاميركية (ناسا) السبت 26 نوفمبر 2011، باتجاه المريخ الإنسان الآلي "كوريوزيتي" Curiosity وهو الروبوت الأكثر تطورا بين المسبارات التي أرسلت لا ستكشاف كواكب أخرى وهو بإمكانه أن يحدد للمرة الأولى ما إذا كانت بيئة الكوكب الأحمر مواتية في الماضي لتطور الحياة على سطحه.

الروبوت "كوريوزيتي" المعروف أيضا باسم " مارس ساينس لابوراتوري" Mars Science Laboratory (ام ا س ا ل) يتوقع ان يحط على سطح المريخ في أوت 2012 بعد رحلة يقطع فيها مسافة 570 مليون كيلومتر. و قالت كولين هارتمان المدير المساعد للمهمات العلمية في الناسا

" انه روبوت استثنائي فعلا تتجاوز قدرته بكثير كل ما أطلقناه حتى الآن باتجاه كوكب أخر من النظام الشمسي".

و من المقرر إطلاق الروبوت من مركز كاب كانافيرال في فلوريدا (جنوب شرق الولايات المتحدة) عند الساعة 02، 15 بتوقيت غرينتش السبت بواسطة صاروخ "أطلس". 5

Un robot à la recherche de la vie sur Mars

Revue : la recherche http://www.larecherche.fr/content/actualite-astres/article?id=30892

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرانكلين روزفلت – الجزائر –
الهاتف 25 – 24 – 07 – 021
الفاكس 07 – 07 – 23 – 021
ص.ب 575 الجزائر، ديدوش مراد
www.csla.dz